

الإيواء والنصرة وأثرهما على الدعوة إلى الله

**الدكتور/ حمد بن ناصر بن عبدالرحمن العمار
قسم الدعوة والاحتساب — كلية الدعوة والإعلام بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

المقدمة:

الحمد لله الذي فضلنا بالإسلام، والصلاة والسلام على نبي الأنام وعلى آله وصحبه ما تعاقب ليل ونهار، ونور وظلام، أمّا بعد:

فإنّ من خصائص الدعوة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ من ربّه -عز وجل- بواسطة جبريل -عليه السلام- أنّها دعوة عالمية، تتسع جميع الأقطار والأزمنة، والألوان، والبيئات واللغات، منذ بعثته ﷺ وإلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَمَنِئُمَّنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

وجاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهراً ومسجداً، فأبما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة"^(٢).

كما جاء في حديث تميم الداري -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ١/٧٣٠-٧٣١ رقم ٥٢١.

وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزٍّ عزيز أو بذلٍّ ذليل، عزاً يعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يُذلُّ الله به الكفر"^(١). وإنَّ هذه الدعوة الإسلامية العالمية الخاتمة احتاجت في صدر الإسلام إلى تفعيل، وكان من أهم أوجه التفعيل لها، اعتمادها بعد توفيق الله تعالى إلى من يأويها ويدعمها وينصرها مادياً ومعنوياً، وقد تحقق ذلك بفضل الله تعالى، فوجد من قدّم لها الدعم والإيواء والنصرة ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأصبحت مكة بلداً حراماً وقبلة للمسلمين، والمدينة مأوى لأفئدة المؤمنين.

ولأنَّ طبيعة هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ أنه دين عالمي، فإنه يحتاج على مرّ العصور إلى من يأويه وينصره سواء أكان ذلك متعلقاً بمضامينه، والتي تكفل الله بحفظها، أم كان بحملته الذي ينافحون عنه، ويدعون إليه، ويحرصون على جذب الآخرين إليه وتعييدهم لله - عز وجل -.

إنَّ الدعوة الإسلامية بحاجة ماسّة إلى من ينصرها ليستبين الرشد، ويعمّ الأمن والطمأنينة، ويعود الناس إلى ماضيهم التليد، ويعبدوا ربهم على علم وبصيرة وهدى.

إنَّ أعداداً ليست بالقليلة في عالمنا اليوم لم تصلهم الدعوة بصفائها وبهائها، ويعود ذلك إلى أسباب، من أهمها عدم قدرة الدعوة إلى الوصول إلى هذه الفئات من البشر لتنقذهم من الضلالة والجهالة وتنقلهم إلى الإيمان.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٠٣/٤ رقم ١٦٩٩٨، وقال الأرئؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم ١٥٥/٢٨.

وسنركز في هذا البحث - إن شاء الله - على تلك الصورة الفريدة التي سلكها نبي الرحمة محمد بن عبد الله ﷺ في فعل الأسباب لإيواء دعوته ونصرتها، وفي آخر هذا البحث سنتعرف على صورة أخرى معاصرة أفادت مما كان عليه نبينا محمد ﷺ في طلبه الإيواء لدعوته ونصرتها، أسأل الله سبحانه أن يوفقنا إلى رضاه ورضاه الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد:

أولاً: الإيواء في اللغة: قال ابن فارس: "أوى" الهمزة والواو والياء أصلان: أحدهما التجمع، والثاني الإشفاق.

قال الخليل: يقال: أوى الرجل إلى منزله، وآوى غيره أُوياً، وإيواء، ويقال: أوى إواءً أيضاً، والأوْيُ أحسن.

والمأوى: مكان كل شيء يأوي إليه ليلاً ونهاراً، وأوت الإبل إلى أهلها تأوي أُوياً فهي آوية، ومنه يقال: تأوت الطير، إذا انضم بعضها إلى بعض، وهنَّ أُوْيٌ ومتأوَّيات. وقال أبو عبيد: يقال استأويت فلاناً أي: سألته أن يأوي لي^(١).

فالمأوى كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً ونهاراً. وقد أوى فلانٌ إلى منزله، يأوي أُوياً، على فعول، وإواء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَاقُوْا إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(٢). والمأوى لكل حيوان سكنه، ومأوى الغنم مُراحها الذي تأوي إليه ليلاً^(٣).

وقال الأصفهاني: المأوى: مصدر أوى يأوي أُوياً ومأوى، تقول: أوى إلى كذا انضم إليه، يأوي أُوياً ومأوى، وآواه غيره يؤويه إيواءً، قال عز وجل:

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون ١٥١/١ وما بعدها.

(٢) سورة هود، آية: ٤٣، وللاستزادة انظر: الصحاح، الجوهري ١٨١٦/٥، مختار الصحاح، الرازي ٣٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/١٤.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المقرئ ٤٣/١.

﴿ إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ سَفَاوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَتَتَوَىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَىٰ ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿ فَأَوَّلَتْكَ مَأْوِلُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(٧).

الإيواء في الاصطلاح:

هو: المكان الذي تأوي إليه الدعوة الإسلامية بمضامينها أو بدعائها.

وعلى هذا المعنى جاءت نصوص الشريعة ومنها: ما رواه جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: "مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: "من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟" ^(٨).

(١) سورة الكهف، آية: ١٠.

(٢) سورة هود، آية: ٤٣.

(٣) سورة يوسف، آية: ٦٩.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٥١.

(٥) سورة المعارج، آية: ١٣.

(٦) سورة النجم، آية: ١٥.

(٧) سورة النساء، آية: ٩٧، وللاستزادة انظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق: سيد كيلاني ٣٤.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٣٢٢ رقم ١٤٤٩٦، وقال الأرنبوط: إسناده صحيح على شرط مسلم ٣٤٨/٢٢.

وعن عامر - رضي الله عنه - قال: انطلق النبي ﷺ ومعه العباس عمّه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال: "ليتكلم متكلّمكم، ولا يطيل الخطبة، فإنّ عليكم من المشركين عينا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم"، فقال قائلهم، وهو أبو أمامة: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك؟ فقال: "أسألكم لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤثروا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم..."^(١).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: اجتمع ناس من الأنصار فقالوا: أثر علينا غيرنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم ثم خطبهم فقال: "يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أدلة فأعزكم الله؟" قالوا: صدق الله ورسوله، قال: "ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله؟" قالوا: صدق الله ورسوله، قال: "ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله؟" قالوا: صدق الله ورسوله. ثم قال: "ألا تحبونني، ألا تقولون: أتيتنا طريداً فأويناك، وأتيتنا خائفاً فأمنّاك، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبقران وتذهبون برسول الله فتدخلونه بيوتكم..."^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١١٩/٤ - ١٢٠ رقم ١٧١١٩، وقال الأرئوط: مرسل صحيح ٣١٠/٢٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥٧/٣ رقم ١١٥٦٤، وقال الأرئوط: إسناده صحيح ١٠٥/١٨.

ثانياً: التعريف بالنصرة:

النصرة في اللغة: قال ابن فارس: النون والصاد والراء أصلٌ صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه، ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم، ينصرهم نصراً، وانتصر: انتقم، وهو منه، وأما الإتيان فالعرب تقول: نصرت بلد كذا، إذا أتيته، قال الشاعر:

إذا دخل الشهر الحرام فودّعي بلاد تميم وانصري أرض عامر^(١)

ونصره على عدوه ينصره نصراً، والاسم: النُصرة، والنصير، الناصر، وجمعه أنصار، كشريف وأشراف، وجمع الناصر: نصير، كصاحب وصاحب، واستنصره على عدوه سأله أن ينصره عليه، وتناصر القوم: نصر بعضهم بعضاً، واستنصرته: طلبت نصرته^(٢)، ونصر الغيث الأرض، أي: غاثها، ونصرت الأرض فهي منصوره، أي: مطرت^(٣)، ونصر المظلوم نصراً ونُصوراً، أي: أعانه، وأنصار النبي ﷺ غلبت عليهم الصّفة، ورجل نصر، وقوم نصر، والنصرة هي: حسن المعونة، والاستنصار: امتداد النصر والسؤال^(٤).

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون ٤٣٥/٥.

(٢) مختار الصحاح، الرازي ٦٦٢، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المقري ٧٤٣/٢.

(٣) الصحاح، الجوهري ٧٠٧/٢.

(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٢٠١/٢.

النصرة في الاصطلاح:

النصرة هي: عون الدعوة ودعمها مادياً ومعنوياً، وعلى هذا المعنى جاءت النصوص الشرعية، قال تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأْوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٨) وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِمْ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٩).

(١) سورة الصف، آية: ١٣.

(٢) سورة النصر، آية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٠.

(٥) سورة غافر، آية: ٥١.

(٦) سورة النساء، آية: ٤٥.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٨) سورة الأنفال، آية: ٧٢.

(٩) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

وعن معاوية بن حيدة قال: قلت: يا نبي الله ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عدد دهن - لأصابع يديه - ألا أتيك، ولا آتي دينك، وإني كنت امرأ لا أعقل شيئاً، إلا ما علمني الله ورسوله، وإني أسألك بوجه الله عز وجل، بما بعثك ربك إلينا؟ قال: "بالإسلام" قال قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: "أن تقول: أسلمت وجهي إلى الله عز وجل وتخلّيت، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، كل مسلم على مسلم محرّم، أخوان نصيران، لا يقبل الله عز وجل من مشرك بعد ما أسلم عملاً، أو يفارق المشركين إلى المسلمين"^(١).

(١) أخرجه النسائي في كتاب الزكاة، باب: من سأل بوجه الله عز وجل، صحيح سنن ابن ماجه، الألباني ٥٤٢/٢ رقم ٢٤٠٨، وللاستزادة انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩١٩.

ثالثاً: التعريف بالدعوة:

الدعوة في اللغة:

قال ابن فارس: (دعو) الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو: أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك^(١).

والدعوة مصدر للفعل الثلاثي، دعا، يدعو، دعوة، ولها معان متعددة كلها تدور حول: الطلب، والسؤال، والنداء، والتجمع، والدعاء، والاستمالة، والاستغاثة^(٢).

ولفظ الدعوة يطلق على: الدعوة إلى الخير، وعلى: الدعوة إلى الشر، ويتحدد معناها المراد من خلال سياقها.

فمن استعمال كلمة الدعوة في الخير:

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ

السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

وفي كتابه ﷺ إلى هرقل: "من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين"^(٥).

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون ٢/٢٧٩.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٧٩ وما بعدها، لسان العرب، ابن منظور ١٤/٢٥٧ وما بعدها، الصحاح الجوهري ٥/١٨٦٥.

(٣) سورة الرعد، آية: ١٤.

(٤) سورة يونس، آية: ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي ١/٦-٨ رقم ٧، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد، باب:

كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/١٣٩٣-١٣٩٧ رقم ١٧٧٤.

ومن استعمال كلمة الدعوة في الشر:

ما قاله القرآن الكريم عن يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ

أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾^(١) أي: من طاعة النسوة والوقوع في الإثم.

ومن استعمال كلمة الدعوة في الخير والشر:

ما حكاه القرآن الكريم عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ

إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾^(٢) وما حكاه القرآن الكريم عن

المشركين: ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ

بِإِذْنِهِ ﴾^(٣).

ومنه: حديث عكرمة أن ابن عباس قال له ولعلي بن عبدالله: اتبنا أبا

سعيد فاسمعا من حديثه، فأتيا، هو وأخوه في حائط لهما يسقيانه، فلما رأنا جاء

فاحتبى وجلس فقال: كنا ننقل لبن المسجد لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين

لبنتين، فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار وقال: "ويح عمار تقتله الفئة

الباغية، عمار يدعوهم إلى الله، ويدعونه إلى النار"^(٤).

(١) سورة يوسف، آية: ٣٣.

(٢) سورة غافر، آية: ٤١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله ٢٧٢/٣ -

٢٧٣ رقم ٢٨١٢.

الدعوة في الاصطلاح:

كلمة الدعوة من الألفاظ المشتركة التي تطلق على: الإسلام الذي هو موضوع الدعوة، كما تطلق على: عملية نشر الإسلام وتبليغه للناس، وسياق إيرادها هو الذي يحدد معناها.

ولا شك أن الدعوة بمعنى: نشر الإسلام وتبليغ أحكامه للناس، أصبحت علماً مستقلاً وقائماً بذاته، وله تفرعاته، وأركانها، ومسائلها، وقضاياها، وهو بذلك يتواكب مع سائر العلوم الإسلامية الأخرى يفيد منها ويفيدها.

أولاً: تعريف الدعوة بمعنى: الإسلام أو الدين الذي هو موضوع الدعوة:

قيل هي: الإسلام، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك^(١)، وقيل هي: دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعاً، تجدد على يد محمد ﷺ خاتم النبيين، كاملاً وافياً لصلاح الدين والآخرة^(٢). وقيل هي: النظام العام، والقانون الشامل لأمر الحياة، ومناهج السلوك للإنسان، التي جاء بها محمد ﷺ من ربه، وأمره بتبليغها إلى الناس، وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب، في الآخرة^(٣).

ثانياً: تعريف الدعوة بمعنى نشر الإسلام وتبليغ أحكامه:

قيل هي: تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة^(٤). وقيل هي: العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة إلى تبليغ الناس بما حوى من عقيدة وشرعية وأخلاق^(٥).

(١) ثلاثة الأصول وأدلتها، الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ٨.

(٢) الدعوة الإسلامية "دعوة عالمية"، محمد الراوي ٣٩.

(٣) الدعوة الإسلامية، وأصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش ١٢ وما بعدها.

(٤) المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد أبو الفتح البيانوني ١٧.

(٥) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش ١٠.

وقيل هي: فنّ يبحث في الكيفيّات المناسبة التي نجذب بها الآخرين إلى الإسلام، أو يحافظ على دينهم بواسطتها^(١).

وأقول إنّ الدعوة بمعنى النشر والبلاغ هي:
استخدام كافة فنون القول، ومهارات التبليغ لجذب المدعوين إلى الإسلام بطريقة مشروعة.

وهذه التعاريف لا منافاة بينها، بل بعضها يكمل البعض الآخر، فهي ليست من باب اختلاف التضاد، لكنها من باب اختلاف التنوع، وكل تعريف عني بجانب مهم من جوانب الدعوة.

(١) الدعوة والإنسان، د. عبدالله الشاذلي ٣٩.

المبحث الأول: الإيواء والنصرة في العهد الملكي:

حاجة الدعوة إلى الإيواء والنصرة:

إن تاريخ الدعوة إلى الله يبين لنا المضايقات والمشكلات التي اعترضت الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم، لذا كان الصبر زاداً أساسياً لهم في كل مراحل الدعوة، كما أن النصر كان غاية تتوق إليها نفوس الدعاة في كل زمان ومكان، ولطالما كانت النفوس يعتريها اليأس من الصد والإعراض ولكن نصر الله لا يتخلف قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

إن إظهار الحق بالحجة والبرهان من قبل الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم من الدعاة والمصلحين إلى أقوامهم يفضي إلى نتيجتين. النتيجة الأولى تتمثل في أمرين:

الأمر الأول: تسليم أصحاب الفطر السليمة، والقلوب الصافية، فيدخلون في دين الله على بينة، وقناعة وإيمان.

الأمر الثاني: قهر المعاندين، بسبب ظهور الحق على باطلهم.

النتيجة الثانية: لجوء المعاندين إلى مواجهة داعي الحق بالأذى والعدوان.

قال تعالى عن قوم نوح: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾^(٢)، وقال سبحانه وتعالى عن قوم لوط: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ

(١) سورة يوسف، آية: ١١٠.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١١٦.

تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١﴾، وهكذا فإن جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد تعرضوا من أقوامهم لأشد الكيد والمكر والأذى والعناد، مع أنهم لم يأتوا أقوامهم محاربين ولا مخاصمين، وإنما أتوهم داعين إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولما كان إظهار الحق بالحجة والبرهان، سبباً في اندحار الباطل، وتصدي أهل الباطل للدعوة باعتراض مسيرتها بشتى الوسائل والأساليب^(٢) لأجل ذلك كله كانت الدعوة بحاجة الإيواء والنصرة في كل مرحلة من مراحلها.

إن نبي الله لوط - عليه الصلاة والسلام - حينما دعا قومه إلى عدم إتيان الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فأعرضوا عن دعوته، فتمنى لو كانت له منعة وقوة قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُبْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَتُوْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَيْفِي^ط أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾^(٣)، قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط -عليه الصلاة والسلام-: إن لوطاً توعدهم بقوله ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾ أي: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل من العذاب والنقمة، وإحلال البأس بكم بنفسي وعشيرتي ولهذا ورد في الحديث عن أبي

(١) السورة السابقة، آية: ١٦٧.

(٢) انظر: الدعوة إلى الله في ميادينها الثلاثة الكبرى، محمد بن حامد آل عثمان الغامدي ٥٦٢-٥٦٣.

(٣) سورة هود، آية: ٧٩-٨٠.

هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: "رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد وما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه"^(١)، فعند ذلك أخبرته الملائكة: أنهم رسل الله إليه، وبشروه أنهم لا وصول لهم إليه^(٢).

فقد تبنى لوط -عليه الصلاة والسلام- لو كانت له قوة ومنعة تؤويه وتنصره، وهذا بحسب الأحوال المحسوسة ولكنه يأوي إلى الله عز وجل الذي لا يضام من لاذ بحماه ولجأ إليه، ولذا فإن الإيواء والنصرة أمران عظيمان بالنسبة للدعوة، للامتناع بهما -بعد الله تعالى- عن سفه السفهاء وجهالة الجهال.

فحينما دعا شعيب - عليه الصلاة والسلام - قومه وتلطف في دعوتهم، حيث دعاهم إلى الأمانة في المعاملة، وذكرهم بمصارع المكذبين من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وإذا بقومه يسخرون منه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا ط وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾^(٣).

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، وتتمكن بها

(١) أخرجه الترمذي في أبواب: تفسير القرآن، باب: سورة يوسف، صحيح سنن الترمذي، الألباني ٦٤/٣ رقم ٣٣٣٢، وأخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين في كتاب ذكر لوط النبي ﷺ، باب: لم يبعث نبي قط بعد لوط إلا في ثروة من قومه ٤٣٥/٣ رقم ٤١٠٨، وقال: صحيح على شرط مسلم، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني ١٥٢/٤ رقم ١٦١٧، زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ١٤٠/٤-١٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٩٧/٢.

(٣) سورة هود، آية: ٩١.

من مخالفتنا، وقيل: الضعيف: المهين.. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَنكَ﴾ رهط الرجل: عشيرته الذين يستند إليهم، ويتقوى بهم..، وإنما جعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة، والكفار ألوف مؤلفة، لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ حتى نكف عنك لأجل عزتك عندنا، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا^(١)، إنهم رأوه ضعيفاً فلا وزن عندهم للحق الذي يحمله، والذي هو أعظم من القوة المادية، كما أن عصية العشيرة عندهم مقدمة على رابطة العقيدة، فلولا رهط شعيب عليه الصلاة والسلام لرجموه^(٢)، وحينما كلف الله تعالى موسى -عليه الصلاة والسلام- بدعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله وتوحيده لا شريك لله، طلب موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى ربه أن يشد عضده بأخيه هارون، قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿وَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ ﴿أَشَدُّ بِمَآ أَرْزَىٰ﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ ﴿كَئِنِّي نَسِيتُكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذُرُكَ كَثِيرًا﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا

(١) فتح القدير، الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة ٥٣١/٢.

(٢) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، د. أحمد البراء الأميري ٣٥٣.

(٣) سورة طه، آية: ٢٤-٣٥.

يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿٣﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٤﴾
 قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِقَايَتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٥﴾ (١)، إن موسى -عليه
 الصلاة والسلام- أدرك ضخامة المهمة التي كلفه الله -عز وجل- بها، فشكا
 إلى ربه ما به من ضعف وقصور، وطلب منه العون والمساعدة، بموازرتة بأخيه
 هارون، فأيده الله بنصره، وبتحقيق رغبته الصادقة في الدعوة، بأن أرسل معه
 أخاه هارون، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِقَايَتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ (٢).

وقد عرض القرآن الكريم لنماذج دعاء من غير الرسل -عليهم الصلاة
 والسلام- عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه، مثل دعوة مؤمن آل
 فرعون لقومه انتصاراً لموسى - عليه الصلاة والسلام -، ودعوة مؤمن أصحاب
 القرية التي جاءها مرسلون ثلاثة وانتصاره لهم ولدعوتهم، ودعوة النفر من الجن
 الذين استمعوا القرآن (٣)، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ
 يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ
 رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَ
 مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرٍ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٥﴾ اتَّبِعُوا

(١) سورة الشعراء، آية: ١٥-١٠.

(٢) الآية السابقة، وللاستزادة انظر: فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، د. أحمد البراء الأميري ٣٨٢.

(٣) للاستزادة انظر: فقه الدعوة إلى الله وفقه النصيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ٣٨٣/٢ وما بعدها.

(٤) سورة غافر، آية: ٢٨.

مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تَرْجِعُونَ ﴿٦١﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي
شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٦٢﴾ إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٣﴾ إِنْ أَمَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٦٤﴾^(١)

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالُوا
يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا
بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ
دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٣﴾^(٢)

ولما كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم من الدعاة إلى الله على
بصيرة يقابلون من أرباب الباطل بالصد والإعراض والأذى والترصد والتأمر،
كانت الدعوة في كل مراحلها بحاجة إلى الإيواء والنصرة والتأييد.

أما فيما يتعلق بالرسالة الخاتمة التي اصطفى الله تعالى لها محمداً ﷺ ليكون
خاتماً للنبيين، فقد هيا الله سبحانه للدعوة الإسلامية أسباب النجاح التي

(١) سورة يس، آية: ٢٠-٢٥.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٢٩-٣٢.

تبلورت في صور متعددة من منعة في قومه، حيث شرف النسب وعراقة الأصل، وأتباع من الدعاة الصابرين المجاهدين وأناس من ذوي الفطر السليمة الذين احتضنوا دعوته وآووه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، فكانوا نعم العون والتأييد بعد الله تعالى.

المكانة الاجتماعية وأثرها في الدعوة:

شاء الله عز وجل أن يمكن لدعوته، ولنبيه محمد ﷺ فهياً سبحانه من الأسباب ما يساعد على ذلك، ولما كانت الدعوة إلى الله تعالى بحاجة إلى الإيواء والنصرة، لتهيئة الفرص لانتشارها، فإن الله هياً الأسباب اللازمة لذلك، فمن المعلوم أن شرف النسب ونفاسته لها أثر كبير في نفوس الناس من حيث المكانة الاجتماعية المهيبة التي تشكل سياجاً من المنعة والحماية —بعد توفيق الله عز وجل—، فقد شرف الله العرب بحمل الرسالة إلى العالم، واصطفى رسوله الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

فهو سبحانه أعلم بكل شيء، بالزمان والمكان والمجتمع الذي تظهر فيه الدعوة، إن الأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة ليبني المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين^(٣).

(١) سورة الحج، آية: ٧٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٣) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، الطيب برغوث ١٨٦.

إن طهارة الأعراق، وشرف النسب، تمنح الإنسان أصالة ومصداقية وتقطع الطريق أمام من يريد ثلثه والقدح فيه، بخلاف من كان في أعراقه أو نسبه دخن، فقد يعيره الناس بذلك، فالأعراف الاجتماعية خاصة فيما يتعلق بأنساب الناس وأعراقهم، لها تأثير لا ينكر في موقف المجتمع من الإنسان الذي يواجهه التحدي، إذ يلجأ هذا الأخير في سياق الدفاع عن وجوده المادي والمعنوي إلى ما يهون به موقف الخصم، وهو الأمر الذي حمى الله رسوله ﷺ منه، وجعله يأوي إلى ركن شديد من عراقة النسب، وشرف الموطن، في بيئة تقيم وزناً خاصاً لذلك، وتعدده كل شيء في حياتها، تفاخر به، وتربي أجيالها عليه^(١)، الأمر الذي جعل بعض من تتبع حياة العرب قبل الإسلام بالدرس والتحليل والرصد لأنواع المعارف، التي كان سائدة عندهم: يحصي "علم الأنساب" في عداد ما برع فيه العرب، واهتموا به اهتماماً خاصاً فاقوا فيه أمماً كثيرة في التاريخ.

والنبي ﷺ من أنسب العرب، فهو خيار من خيار من خيار^(٢) فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم^(٣).

(١) المقدمة، ابن خلدون ٥٩٥/٢.

(٢) انظر: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والحفاظ على منجزاتها خلال الفترة المكية، الطيب برغوث ٢١٤، مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ٢٤٧.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ١٧٨٢/٤ رقم ٢٢٧٦.

إن عراقة نسب النبي ﷺ كان لها أثر بين في دعوة النبي ﷺ، فقد كان يشعر بالعزة والشرف، فالعرب قاطبة، كانت تعرف وتذكر علو نسبه، ومكانة قريش المرموقة، حيث كانت تقوم على خدمة البيت الحرام، ولذا فقد أفادت الدعوة من هذا الأمر، حيث التوازنات القبلية التي كانت تجعل القبائل العربية، تمأب قوة قريش، مما جعل للدعوة منعة وحماية وبالطبع فإن الأمور آنفة الذكر، مما هيا الله لدعوته من الاختيار.

أما فيما يتعلق بشخص النبي ﷺ فكانت هناك مراحل هامة في حياته، منذ ولادته، حيث وُلد يتيماً، فلم ير أباه، وبعد مدة يسيرة من الزمن توفيت أمه، فقام جده عبدالمطلب على كفالته، وبعد موت جده، قام عمه أبوطالب بكفالته، فأراد الله أن ينشأ تلك النشأة التي أكسبته الصلابة والقدرة على التحمل، وكي يتأهل لما ينتظره من مهام عظام.

لقد كان عبدالمطلب يُجلس رسول الله ﷺ وهو صغير على فراشه ويمسح ظهره بيده، ويسره ما كان يصنع، وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلا ويقول عليّ بابني، وهو ما كان يفعله معه أبو طالب، حيث كان إذا أراد أن يتغذى مع عياله، يقول: كما أنتم، حتى يأتي ولدي، يقصد رسول الله ﷺ^(١).

وصحب رسول الله ﷺ عمه أبا طالب في بعض رحلاته التجارية إلى الشام، وأسهم رسول الله ﷺ في تحسين الأوضاع الاقتصادية لأسرة عمه أبي طالب، ولا سيما بعد أن طلب إليه عمه الإسهام في تجارة خديجة رضي الله

(١) السيرة النبوية، ابن كثير ٢٤١/١.

عنها حيث قال أبو طالب: "يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنوات منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة.." (١).

ووفق الله تعالى محمداً ﷺ في تجارته لخديجة -رضي الله عنها- واستفاد في رحلاته التجارية استفادة كبيرة في شتى مجالات الحياة، وكان من أهم ذلك رغبة خديجة في الزواج من النبي ﷺ لما رأت فيه من عظيم الصفات، وكان لهذا الزواج المبارك أمر عظيم على الدعوة الإسلامية، وذلك من خلال المهمة الكبيرة التي اضطلعت بها خديجة في حياة النبي ﷺ حيث كانت المأوى والملاذ الذي يأوي إليه رسول الله ﷺ بعد الله تعالى. كما كان لعمه أبي طالب دور مهم في حياة النبي ﷺ.

ومن خلال هذا الحديث الموجز عن شرف نسب الرسول ﷺ وعن مكانة قومه وعن كفالة جده وعمه له، وعن تجارته لخديجة وزواجه منها، نستطيع أن نؤكد أن ذلك يعد من ركائز الإيواء والنصر للنبي ﷺ في دعوته إلى الله تعالى، فقد كانت تلك الأمور بمثابة القاعدة الأساسية التي انطلق منها رسول الله في دعوته، حيث كان بحاجة إلى من يؤويه - بعد الله تعالى - وكذلك من ينصره - بعد الله تعالى - فقيض الله عز وجل له من يقوم على إيوائه ونصرته، لأن الدعوة تحتاج إلى الإيواء والنصرة ولا بد وأن يكون لها منعة - بعد الله تعالى - في مراحلها كافة، وأن الله عز وجل يمتن على نبيه محمد ﷺ فيقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ

وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ ﴾ (٢).

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، ابن سيد الناس ٦٠/١.

(٢) سورة الضحى، آية: ٦-٨.

قال ابن كثير — رحمه الله — "يعدد الله نعمه على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبدالمطلب إلى أن توفي، وله من العمر ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه، بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم، إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وعنايته به" (١).

موقف خديجة - رضي الله عنها :

إن رسول الله ﷺ، حينما نزل عليه أمين الوحي، جبريل - عليه السلام - وقال له: اقرأ، قال في الحديث: فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (٢)، قالت عائشة -راوية الحديث- فرجع بها

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٥٥/٤.

(٢) سورة العلق، آية: ١-٥.

ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه
الروع، فقال يا خديجة ما لي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي،
فقالت له: كلا فوالله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم و تصدق الحديث
وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة
بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب
الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان
شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ما ترى؟
فأخبره، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً
أكون حياً، حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم؛ لم يأت أحد
بما جئت به إلا عودي وأوذني، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم
يلبث ورقة أن توفي^(١).

إن موقف خديجة - رضي الله عنها - من رسول الله ﷺ يؤكد مؤازرتها
وإيواءها له، حيث كانت - رضي الله عنها - بمثابة الواحة التي يتفأ من ظلالها
ويأوى إليها عند اشتداد الأمر، فتواسيه وتشد من أزره، وتسانده، فقد ساندته
من قبل بمالها وثقتها فيه، وحسن اختيارها له، واليوم تخفف عنه وتبشره وتذكر
بسيرته العطرة ومواقفه العظيمة تجاه الآخرين، حيث تقول له: "فوالله لا يخزيك
الله، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث..."^(٢) ولم تكن بذلك فحسب، بل
صحبتة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، حتى تطمئننه وتبشره، ولا شك أن هذه

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٤/١ - ٥ رقم ٣

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٣٩/١ - ١٤٢ رقم

(٢) الحديث السابق.

المواقف تشد من الأزر وتبعث على الثقة، فالداعية بحاجة إلى الدعم والتأييد الداخلي في أسرته حتى ينطلق بدعوته وهو مطمئن بنصر الله توفيقه.

مناصرة الدعوة في مرحلتها - السرية والجهرية -:

استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ، وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾^(١).

لقد لخصت هذه الآيات مضمون الدعوة التي أنيط به ﷺ تبليغها إلى الناس، فأخذ الرسول ﷺ يدعو إلى الله سرّاً لمدة ثلاث سنوات وكان تحركه في هذه المدة وسط الذين تربطهم به صلات، مثل: زوجته وأبنائه ومولاه وربيبه، وأصدقائه، وكل من يطمئن إلى أنه يكتم السر^(٢)، وفي إطار هذه السرية تحرك أبوبكر الصديق -رضي الله عنه- وسط أقرابه ومواليه وأصدقائه، ومن يثق به من قومه، فاستجاب له نفر كريم، منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وغيرهم من السابقين إلى الإسلام^(٣)، ونجح هؤلاء الصحابة -رضوان الله عليهم- في نشر الإسلام في مكة بين من تربطهم بهم علاقات، وذلك حسبما أتيح لهم في هذه المدة السرية، فقد أسلم بلال بن رباح وصهيب بن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه.

(١) سورة المدثر، آية: ١-٧.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وآخرين ٣٠٩/١.

(٣) المرجع السابق ٣١٧/١، البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ٧٥/٤.

إن سبق الأوائل من الصحابة -رضي الله عنهم- إلى الإسلام، جعلهم يتحملون العذاب الشديد الذي ألحقه المشركون بهم، فعن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه - قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس...^(١).

ومن الملاحظ في تلك المدة السرية للدعوة أن المنعة كان لها دور في حماية بعض المسلمين من بطش المشركين، وأن الدعوة تحتاج إلى الحماية في كل مراحلها حتى يتسنى للمؤمنين بالله أن يدعوا إلى الله، وشاء الله أن يبعث نبيه محمداً ﷺ في منعة من قومه، وأن يقيض عمه أبا طالب لحمايته من المشركين.

وبعد هذه المرحلة السرية من الدعوة نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)، "يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة، وقال أبو عبيدة عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-: ما زال النبي ﷺ مستخفياً، حتى نزلت ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه^(٣).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٠٤/١ رقم ٣٨٣٢، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح ٣١٩/٥.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦١٥/٢، فتح القدير، الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة ١٤٦/٢.

وعندما صدع رسول الله ﷺ بالدعوة هب المشركون لمحاصرة تلك الدعوة التي لم تصبح منحصرة بين فئات معينة من الناس، ولم تعد محدودة الانتشار بل أخذت تزداد مكانة المشركين، وباتت خطراً على وضعهم، فكان لابد لقريش أن تلجأ إلى أبي طالب، ليحول دون ابن أخيه محمد ﷺ ويمنعه من مواصلة الدعوة، وهنا يجدر بنا أن نؤكد على أهمية الإيواء والنصرة للدعوة الإسلامية، حيث حالت نصرة أبي طالب -بإذن الله- بين قريش وبين إيذائها للنبي ﷺ ولذا لجؤوا إلى أبي طالب للتأثير عليه، فقد ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك، قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه^(١).

وهذا الكلام يدل على شدة كره المشركين للدعوة وللرسول ﷺ، ويدل أيضاً على مكانة أبي طالب القوية وعلى منعته وحمايته لابن أخيه، ولكن النبي ﷺ لم يعبأ بمثل هذه التهديدات، ومضى يدعو إلى ربه واثقاً بنصر الله تعالى، ولكن لم تهدأ ثورة قريش التي ترمي إلى إخماد جذوة الدعوة الإسلامية، ومن ثم جاؤوا إلى أبي طالب مرة أخرى ودخلوا معه في حوار ومفاوضات طويلة، وذلك بعد احتدام المواجهة بين رسول الله ﷺ وزعماء مكة، بعد أن رأوا أن الدعوة في ازدهار عظيم، فقد جاؤوا إلى عمه أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومزلة فينا وإنا قد استهينناك من ابن أخيك، فلم

(١) السيرة النبوية، ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١/٣٢٨.

تنهه عنا، وأقسموا بأنهم لن يصيروا على أفعاله حتى يكفه عنهم، أو ينزالوه وإياه في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، عند هذا عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، ولذا أبلغ الرسول ﷺ الذي قالوه، وطلب منه أن يبقى عليه وعلى نفسه، ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق^(١).

عندئذ ظن رسول الله ﷺ أن عمه قد ضعف عن نصرته فقال له: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم بكى رسول الله ﷺ وقام من عند عمه، فلما ولي ناداه عمه، فقال: أقبل يا ابن أخي، فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(٢)، ومضى رسول الله ﷺ في دعوته لم يأبه بتهديدات قريش، ولكن لم يطب لقريش عيش، بل لجؤوا إلى طريق آخر، وهو إسقاط الحماية عن النبي ﷺ، وذلك بعد إصرار أبي طالب على نصرة وحماية ابن أخيه، فمشوا إليه مرة أخرى، وعرضوا عليه أن يأخذ عمارة بن الوليد، أهد قريش وأجملهم وأعقلهم، ليتخذه ولداً، ويسلم لهم محمداً ﷺ ليقتلوه فقال لهم: "والله لبئس ما تسوموني به، أتعطوني ابنكم أغدوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً"^(٣).

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار المطلي، تحقيق: د. سهيل زكار ١٤٥.

(٢) المرجع السابق ١٥٤، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين ٣٢٩/١، وقال الألباني: وهذا الحديث ضعيف، وقد أخرج هذه القصة مختصراً الطبراني في الأوسط والكبير، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى باختصار يسير في أوله، ورجاله رجال الصحيح، انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي، تخريج: الألباني ١٠٩-١١٠.

(٣) السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى عبدالواحد ٤٥٧/١.

وهذا يدل على مدى إصرار أبي طالب على نصرة ابن أخيه، وتأنيده في دعوته، مع عدم إيمانه بها، ويؤكد أيضاً على قوة ومنعة أبي طالب، حيث يحاول المشركون مساومته على تسليم النبي ﷺ، بتقلص البديل من وجهة نظرهم الخاطئة الظالمة.

الدعوة تأوي إلى الحبشة:

بالغت قريش في إيذاء المستضعفين من المسلمين، بالإهانة والسب والضرب والشتم وكان الله عز وجل قد حجزهم عن رسوله ﷺ ومنعه بعمه أبي طالب، وقد كان أول هجرة المسلمين إلى الحبشة في رجب سنة خمس من البعثة، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة، وقال محمد بن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانة من الله عز وجل، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: "لو خرجتكم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد - وهي أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم^(١).

فكانت أول هجرة في الإسلام، فكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة وامراته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو مسلمة بن عبد الأسد، وامراته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة العتري، وامراته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سيرة

(١) السير والمغازي، ابن إسحاق ١٢٣.

ابن أبي درهم، وسهيل بن بيضاء، وعبدالله بن مسعود — رضي الله عنهم — أجمعين^(١). ولما سمع المسلمون في الحبشة أن قريشاً أسلمت — وهذا على خلاف الواقع آنذاك — فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش^(٢). ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائريهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها من النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدأً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

الهجرة الثانية:

خرج جعفر بن أبي طالب — رضي الله عنه — وتتابع المسلمون إلى الحبشة، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً، وعدد النساء إحدى عشرة امرأة^(٣).

وقال ابن إسحاق: إنهم كانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وذكر أسماء ست عشرة امرأة^(٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ١٦٥/٤، الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ١٤٣.

(٢) السنن الكبرى، أبوبكر أحمد بن حسين بن علي البيهقي ٩/٩، البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي ١٥٠/٢، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٧٧/٢، الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ١٤٤.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٠٧/١.

(٤) السير والمغازي، ابن إسحاق ٢٢٨.

بيد أن قريشاً حاولت عبثاً إعادة المهاجرين من المسلمين إلى مكة، فقد روى ابن إسحاق من حديث أم سلمة -رضي الله عنها- في هجرة الحبشة أنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمناً على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم (الجلود) فجمعوا أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ريعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرج حتى قدما على النجاشي، فلم يبق من بطارقه بطريق، إلا دفعا إليه هديته، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجأؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم.

وفي الحديث أن الوفد اتفق مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي، بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم، ولكن النجاشي عندما أشير إليه بذلك، رأى أن يدعو المسلمين ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه، وعندما حضروا أمامه تكلم نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- فأوضح للنجاشي حقيقة الدين الذي جاء به محمد ﷺ وموقف قومهم منه، وعندما طلب النجاشي شيئاً مما جاء به ﷺ قرأ عليه جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- صدر سورة مريم، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي

يحملونها. ثم قال النجاشي مخاطباً سفيري قريش: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً وعندما خرجا، قال عمرو لعبدالله: "والله لآتينه غداً بما يبيد خضرأهم". فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي وقال له: "إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل النجاشي إليهم، وعندما جاؤوه سأهم عن قولهم في المسيح فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول".

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، وقال لجعفر: "ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود" ولم يأبه لامتعاض بطارقه، فأعطى المسلمين الأمان في بلاده، ورد هدية قريش^(١). وهذا يؤكد عدالة وسماحة النجاشي، الذي لم ينجح وفد قريش في زحزحته عن موقفه الداعم للحق، وآثر أن يُقي على المسلمين في جواره يمارسون شعائر دينهم في حرية وأمن وأمان، ونعم المسلمون في الحبشة، بما لم ينعم به إخوانهم من المستضعفين في مكة حيث التعذيب والإيذاء.

وخلاصة القول في ذلك أن الحبشة كانت المأوى الآمن الذي استقر فيه المسلمون، بعد أن فروا بدينهم من بطش المشركين في مكة، فكانت الهجرة إلى الحبشة - الأولى والثانية - متنفساً للدعوة ولأتباعها في فترة تاريخية من أحلك الفترات في تاريخ الدعوة في العهد المكي حيث اشتد الأذى على المسلمين، فما أعوزهم إلى الإيواء والنصرة وقد وجدوا ذلك، حينما قبض الله لهم النجاشي - رحمه الله - ليوفر لهم الحماية ويجيرهم من ظلم مشركي مكة،

(١) انظر: السير والمغازي، ابن إسحاق ٢١٣-٢١٦، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى

السقا وزملائه ٤١٣/١-٤١٨.

الذين تعقبوهم في الحبشة وحاولوا - عبثاً - أن يستردوهم وتأمروا في ذلك - كما سبق آنفاً - فرد الله كيدهم في نحورهم، ونعم المسلمون في الحبشة بالمأوى الآمن والنصرة بإذن الله، وهذا يؤكد على حاجة الدعوة إلى الإيواء والنصرة وعلى أثر الإيواء والنصرة على الدعوة، حيث أثمرت الدعوة في الحبشة ثماراً طيبة آتت أكلها بعد حين، فانساحت الدعوة إلى أنحاء متفرقة من القارة الإفريقية.

ويجدر بنا أن ننوه إلى هجرة جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - مع أن أباه كان مدافعاً عن الدعوة، ولم يقصر في حمايتها، ذلك أن هجرته لتبليغ الدعوة بالطريقة الذاتية لها، فهو ابن عم رسول الله ﷺ أعلم الناس بأحواله وأحقهم بحمل رسالته، لذا كان المتحدث مع النجاشي في شأن الفتنة التي أرادتها قريش، لقد بقي معظم المهاجرين بالحبشة، ومعهم جعفر حتى السنة السابعة من الهجرة، بعد أن أصبح للإسلام دولة قوية في المدينة قويت فيها شوكة المسلمين، لأنه كانت لهم الجهود الطيبة في تبليغ الدعوة على صعيدها العالمي، بل إن محاولة قريش استرداد المهاجرين هو نفسه دليل على ما أدركوه من إمكان انتشار الإسلام بهذه الهجرة في الحبشة، وخوفهم من بناء قاعدة إسلامية، تناهض القرشيين في مكة، وإلا فهجرة المسلمين من مكة، كانت راحة لهم من هم تكاثرهم في داخل أم القرى، غير أن الأمر كان عملية سد الطريق على الدعوة حتى لا تنتشر ولا تنمو"^(١).

(١) انظر: سيكولوجية الرأي والدعوة، د. رؤوف شليبي ٢٥٥-٢٥٧.

نصرة الدعوة بإسلام حمزة وعمر - رضي الله عنهما:-

إذا كانت قريش حاولت إيذاء المسلمين في الحبشة بالكيد لهم لدى النجاشي، ولكنها فشلت في ذلك، فإنها قامت بتعذيب المسلمين من المستضعفين، والانتقام منهم وبالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم في مكة، كانوا قليلين جداً، وكانوا إما ذوي شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويتعدون عن أعين أعداء الدعوة بقدر الإمكان، ولكنهم مع هذه الحيلة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور، وأما رسول الله ﷺ، فقد كان يصلي، ويعبد الله أمام أعين أعداء الدعوة، ويدعو إلى الله سرّاً وجهراً، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا يصرفه عنه شيء، وكان من الممكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا، ولم يكن في الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون، إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار، وما كان لأبي طالب من الذمة والاحترام، وما كان يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم، عن اجتماع بني هاشم عليهم، إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب في نفوسهم إذ بدؤوا يستخفون به، منذ شعروا باختيار كيانهم الوثني، وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ. وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص قلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبوبكر - رضي الله عنه - حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾^(١).

(١) سورة غافر، آية: ٢٨، والحديث أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: ذكر ما لقي

النبي ﷺ وأصحابه من المشركين. بمكة ٢٨٩/٤ - ٢٩٠ رقم ٣٥٨٦.

خلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان، ظهر برق أضواء الطريق، وهو إسلام حمزة بن عبدالمطلب -رضي الله عنه- فقد أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة، وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا فأذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبوجهل بحجر في رأسه فشججه حتى نزف منه الدم، ثم انصرف إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها على الصفا، ترى ذلك، وأقبل حمزة من القنص متوشحاً قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب حمزة، -وكان أعز فتى في قريش وأشدّه شكيمة- فخرج يسعى ولم يقف لأحد، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له: يا مصفر استه، تشتم ابن أخي، وأنا على دينه أقول ما يقول؟ ثم ضربه بالقوس فشججه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم -حي أبي جهل- وثار بنو هاشم -حي حمزة- فقال أبو جهل: دعوا أبا عماره، فإني سبيت ابن أخيه سباً قبيحاً، فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه^(١).

وقد انعكس إسلام حمزة -رضي الله عنه- على قريش فجعلها تغير نمط التعامل فبدلاً من أسلوب القوة والإيذاء مع النبي ﷺ أخذ بعضهم يحاور النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرطبي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيده، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش،

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٢٩٢/١.

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً، تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها قال: فقال له رسول الله ﷺ، قل يا أبا الوليد اسمع قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لأجمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني قال: أفعل، فقرأ النبي ﷺ من أول سورة فصلت حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك..."^(١). إن هذا الحوار يؤكد على رهبة قريش للنبي ﷺ ومنعته بالله ثم بقومه، خاصة بعد إسلام حمزة -رضي الله عنه-.

وقد أعز الله عز وجل الإسلام، بإسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، فكان إسلامه في ذي الحجة سنة ست من النبوة، بعد ثلاثة أيام من إسلام

(١) السيرة النبوية، ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٢٩٣/١-٢٩٤.

حمزة -رضي الله عنه- وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى بإسلامه فعن عبدالله بن مسعود وأنس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب" قال وكان أحبهما إلى الله عمر -رضي الله عنه-^(١).

قال ابن إسحاق: ولما قدم عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة على قریش، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ وردهما النجاشي بما يكرهون، وأسلم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازوا قریشاً، وكان عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، وصلينا معه، و كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-: "ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر"^(٢) لقد كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً وكانت إمارته. وبعد إسلام هذين البطلين -حمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما- أفاق المشركون عن سكرهم في تنكيلهم بالمسلمين، وغيروا تفكيرهم في معاملتهم للنبي ﷺ والمؤمنين، واختاروا أسلوب المساومات، وتقديم الرغائب والمغريات^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في أبواب: مناقب، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- صحيح

سنن الترمذي، الألباني ٢٠٤/٣ رقم ٣٩٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٩٢/٤

رقم ٣٨٦٣.

(٣) الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ١٥٧.

فقد عرضوا عليه السيادة والملك إن كان يريد ذلك، وعرضوا عليه المال، إلى غير ذلك من الإغراءات، وجهل هؤلاء أنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

لقد بين لهم رسول الله ﷺ الغاية التي يصبو إليها بقوله: "ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم".

فلجؤوا بعد ذلك إلى الأسئلة التعجيزية مثل: تسيير الجبال، وتفجير الأنهار، وإحياء الموتى، وأن يبعث له ملكاً يصدقه أو يسقط السماء عليهم كسفا وغير ذلك من الأسئلة التعجيزية، ثم قاموا بتهديده أشد التهديد، فانصرف عنهم رسول الله ﷺ وهو حزين^(١)، فخاطبهم أبو جهل وقال: يا معشر قريش إن محمداً قد أبي إلا ما ترون من عيب ديننا، وشم آباءنا، وتسفيه أحلامنا، وإني لأعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش،

(١) انظر: المرجع السابق ١٦٠.

فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه، رجع منهزماً منتقعاً لونه، مرعوباً قد ييست يده على حجره، حتى قذف الحجر من يده وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته، ولا أنيابيه لفحل قط فهم بي يأكلني، قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل -عليه السلام- لو دنا لاختطفته الملائكة^(١).

وقال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً تذاَمروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني عبد المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوا إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب -عدو الله- فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره في جهدهم معه، وحدهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم، ليشد لهم رأيهم، وليحذبوا معه على أمره^(٢).

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ * أن رآه استغنى ٦-٧ العلق ٤ / ٢١٥٤ رقم ٢٧٩٧، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٦٩.

فترات حرجة في تاريخ الدعوة:

مرت الدعوة الإسلامية في مكة بفترات حرجة للغاية، حيث أطبق المشركون من كل جانب على المسلمين، فكانت المقاطعة والحصار الاقتصادي، فما إن خرج المسلمون من الحصار، حتى ادهمت الأمور، وأراد المشركون تضيق الخناق على الدعوة، وقاموا باستغلال موت أبي طالب، فنالوا من النبي ﷺ ومن الدعوة.

أولاً: المقاطعة العامة:

لجأت قريش إلى سلاح المقاطعة العامة لبني هاشم الذين أجمعوا رأيهم على مساندة النبي ﷺ إلا أبا لهب، وأرادت قريش بذلك أن تقضي على الدعوة بمحاصرة الرسول ﷺ، وفرض نوع من العزلة عليه ومن معه من المساندين له. إن قريشاً لما رأت أن عدد الداخلين في الإسلام ازداد، وأن وسائلها وأساليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تجد شيئاً، اتخذت أسلوباً آخر، أقسى وأشمل من الأساليب السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة^(١).

وقد ذكر أصحاب السير والمغازي أنه لما رأت قريش أن الصحابة -رضي الله عنهم- قد نزلوا أرضاً بها أمناً، وأن حمزة وعمر أسلما، وأن الإسلام فشا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني عبدالمطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ في شعبهم، ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية عن عادة الجاهلية، وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله فإذا نام الناس

(١) السير والمغازي، ابن إسحاق ١٥٦ وما بعدها.

أمر أحد بنيه، أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمره أن يأتي بعض فرشهم، فلما رأت قريش اجتماع بني هاشم وبني عبد المطلب، قررت كتابة كتاب يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على أن لا يعاملوهم، ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ ففعلوا ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، واستمرت المقاطعة ثلاث سنين حتى جهدوا، ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلات، إلا أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك ضيقاً وكرهاً^(١).

وعلى الرغم من هذه المقاطعة وما جرى للمسلمين وراءها من معاناة^(٢)، إلا أن الرسول ﷺ لم يتوقف عن الدعوة، فكان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين على مكة، ويعرض عليهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه، طمعاً في نصرتهم وتأيدهم ثم نقضت الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب، فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه قد جاوز الثمانين من سنه وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية - لاسيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله، وكسرت صلبه، فلم

(١) انظر: المرجع السابق ١٦١، مغازي الرسول ﷺ عروة ١١٦، الروض الأنف، السهيلي ١٢٧/٢، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٤٣٤/١، زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ٣١/٣.

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ٢٢٠.

يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويلج عليه، وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب، إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يدي عمه، فمشوا إلى أبي طالب، فكلموه، وهم أشراف قومه، فقالوا يا أبا طالب: إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرناك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذين بيننا وبينه فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر فقال لهم رسول الله ﷺ، كما في رواية ابن إسحاق: كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم فلما قال هذه المقالة، توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد، ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ﴾ ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

سَجِرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢﴾^(١)

وقد جاء في هذا المعنى حديث ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ بصر عيني بسوق ذي الحجاز يقول: "يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا"^(٢).

ثانياً: وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير قبل موت خديجة -رضي الله عنها- بثلاثة أيام، وقيل كان بين وفاته ووفاة خديجة -رضي الله عنها- شهر وخمسة أيام^(٣).

وقد ثبت أن أبا طالب مات كافراً فقد روى سعيد بن المسيب عن أبيه أن الرسول الله ﷺ، دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: "يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبدالمطلب^(٤)،

(١) سورة ص، آية: ١-٥، وانظر: الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ١٧٠-١٧٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٩٢/٣ رقم ١٦٠٦٦، وقال الأرئوط: صحيح لغيره ٤٠٥/٢٥.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢١١/١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ ٢٤٨/٥ رقم ٤٦٧٥، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل

على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في التزع، وهو في الغرغرة، ونسخ جواز

الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم، ولا ينقذه

من ذلك شيء من الوسائل ٥٤/١ رقم ٢٤.

وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ^(١) ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ^(٢)، ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، ودخل على بيته وعلى رأسه التراب، فغلسته عنه إحدى بناته وهي تبكي والرسول ﷺ يقول لها: لا تكبي يا بنية فإن الله مانع أباك ويقول بين ذلك "ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب" ^(٣).

ثالثاً: وفاة خديجة -رضي الله عنها-:

توفيت خديجة -رضي الله عنها- بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة أيام على اختلاف القولين، وذلك في السنة العاشرة من النبوة، وكانت -رضي الله عنها- تحن على النبي ﷺ، وتؤازره في أحواله، وتعينه على إبلاغ رسالته وتواسيه بنفسها ومالها يقول رسول الله ﷺ آمنت بي حين كفر

(١) سورة التوبة، آية: ١١٣.

(٢) سورة القصص، آية: ٥٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٤/٧، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٦٦/٢.

بي الناس، وصدقني حين كذبتني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها" (١).

عام الحزن:

أطلق بعض المؤرخين عام الحزن على العام الذي توفي فيه أبو طالب وخديجة - رضي الله عنها - فقد حزن الرسول ﷺ على موتهما، لما سيلم بالدعوة بعد أن كانت له حماية ونصرة ومؤازرة من عمه، ومواساة وإيواء وعطف وحنان من خديجة - رضوان الله عليها -، وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان، خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه (٢)، فإنهم تجرأوا عليه، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب فازداد غماً على غم، حتى يؤس منهم، وخرج إلى الطائف، رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤوه وينصروه على قومه، فلم ير من يؤوي، ولم ير ناصراً ونالوا منه ما لم ينله قومه.

وقد حزن النبي ﷺ حزناً شديداً لموت عمه وزوجته، حيث نالت قريش من النبي ﷺ ومن الدعوة، ما لم تنل من قبل لأن أبا طالب كانت له مكانة وهيبة ومنعة، أفادت منها الدعوة الإسلامية في مكة في فترة تاريخية هامة، أطبق المشركون فيها من كل جانب لاحتواء الدعوة والرسول ﷺ عبر وسائل متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية، وحاولوا قتله ولكنه امتنع بحماية الله عز وجل، الشاهد من ذلك أن الحصار والمقاطعة وموت أبي طالب وموت خديجة - رضي الله عنها - تلك الفترة، كانت من الفترات الحرجة في تاريخ الدعوة في العهد المكي "إن الدعوة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١١٧/٦ - ١١٨ رقم ٢٤٩٠٨، وقال الأرئوط: حديث صحيح ٣٥٦/٤١.

(٢) السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ١٤٠.

الإسلامية في العهد المكي، قد تجنبت صداماً مسلحاً حتى تعطي الفرصة كاملة، لإبراز معالم الدعوة وحقيقة الإسلام، ولذلك التزمت بالصبر الإيجابي الذي يزاوِل العمل في إخلاص مع التحمل لشدائد الأمور..."^(١).

طلب الإيواء والنصرة في الطائف:

لما هلك أبو طالب، ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى، ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام، فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وهم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام^(٢)، فقال أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة (عزقها): إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك، فقام عنهم رسول الله ﷺ، وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكنموا عني، وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشrafهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين (أي: صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا

(١) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، د. رؤوف شلي ٢٦٠.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٦٩/٢، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله

بمراقبته حتى اختضب نعلاه بالدماء، وكان زيد بن حارثة -رضي الله عنه- يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه^(١).

والجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف، فلما اطمأن في جلوسه، قال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"^(٢)، وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرأ غلاماً نصرانياً يدعى عداساً أن يقدم له عنباً، وتعجب عداس^(٣) من قول الرسول ﷺ بسم الله قبل أن يأكل، وزال عجبـه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه، وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له لا يصرفنك عن دينك، فإن

(١) الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ١٨٦-١٨٧.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ٣٣٨/٤.

(٣) قال عداس: إن قول النبي ﷺ بسم الله ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ ومادينك؟ قال: أنا نصراني من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى قال له وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي.

دينك خير من دينه^(١)، ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كثيراً محزوناً كسير القلب، فلما بلغ قرن الثعالب - قرن المنازل - بعث الله إليه جبريل، ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فعن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجيني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو قرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - لفعلت - والأخشبان هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله، وهو قعيقعان - قال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله - عز وجل - من أصلاهم من يعبد الله - عز وجل - وحده لا يشرك به شيئاً"^(١).

وأفاق رسول الله ﷺ واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله به من فوق سبع سموات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أياماً، وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة - لما بهما من الماء والخصب - وخلال إقامته ﷺ هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن ذكرهم الله في موضعين من

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين

فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٩٩/٤ رقم ٣٢٣١، وأخرجه مسلم في كتاب:

الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٤٢٠/٣ رقم ١٧٩٥.

القرآن هما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ
﴿١﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ
وَأَمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣﴾، وقوله
تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا ﴿٤﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٥﴾﴾ (٢).

قال الشوكاني - رحمه الله - واختلف هل رآهم النبي ﷺ أم لم يرهم؟ فظاهر
القرآن أنه لم يرهم، لأن المعنى: قل يا محمد لأمتك: أوحى إلي على لسان
جبريل ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ ومثل قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ
الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ﴾.

ويؤيد هذا ما رواه عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما قرأ
رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، قال عكرمة والسورة التي كان يقرأها
رسول الله ﷺ هي: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٣)، وحقاً كان هذا
الحادث نصراً آخر أمدّه الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩-٣١.

(٢) سورة الجن، آية: ١-٢.

(٣) سورة العلق، آية: ١، وانظر: فتح القدير، الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة ٥/٣٠٠.

هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

أما هذه النصرة، وأما هذه البشارات، فقد قشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه، منذ أن خرج من الطائف مطروداً، حتى صمم على العودة إلى مكة، وعرض الإسلام، وإبلاغ رسالة الله الخالدة^(٢).

حينئذ قال له زيد بن حارثة -رضي الله عنه-: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة، مكث بحراء، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليحيره فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل بن عمرو: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجزت محمداً، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجزت محمداً فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين،

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٢.

(٢) انظر: الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ١٨٩-١٩٠.

وانصرف إلى بيته ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح، حتى دخل بيته"^(١). وقيل: "إن أبا جهل سأل مطعماً: أبحر أنت أم متابع مسلم؟ قال: بل مجير، قال: قد أجرنا من أجرت"^(٢).

ونخلص من ذلك إلى أنه يجوز للداعي المسلم أن يقبل حماية غير المسلم له، ومنع الأذى عنه وتمكينه من الدعوة إلى الله، كما يجوز للداعي أن يطلب هذه الحماية منه لما تقدم من الأدلة، حيث كان رسول الله ﷺ يمتنع ويحتمي بأبي طالب، واحتمائه ﷺ بالمطعم بن عدي في دخول مكة، أثر عودته من الطائف، وكذلك احتماء المسلمين إثر عودتهم من الحبشة إلى مكة بجوار المشركين، وكذلك عرض ابن الدغنة على أبي بكر جواره، فقبله أبو بكر، لأن الهدف من قبول الحماية من غير المسلم، هو تمكن الدعاة من إبلاغ الدعوة، ولكن قبول الحماية مشروط بأن لا يكون على حساب الإسلام وأصوله وفروعه، أي عدم المساس بمبادئ وعقيدة وشرعية وأخلاق الإسلام.

ويجدر بنا في هذا الصدد أن نؤكد على حقيقة مهمة هي: أن ذهاب النبي ﷺ إلى الطائف، كان بحثاً عن مأوى ووطن جديد للدعوة، حيث كانت الطائف تأتي في المكانة الثانية بعد مكة، وكذلك مكانة ثقيف من القبائل، فطمع النبي ﷺ في إيجاد قاعدة جديدة للدعوة الإسلامية، بعد أن تنكرت مكة للدعوة، وقامت بمطاردتها واضطهاد المسلمين.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٣٨١/١.

(٢) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري ١٩٠-١٩١.

الدلالات الدعوية للإسراء والمعراج:

كانت معجزة الإسراء والمعراج تكريماً للنبي ﷺ وبياناً لرعاية الله عز وجل له، خاصة بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يقوم على حمايته ونصيرته ومنعته، ووفاء خديجة -رضي الله عنها- التي كانت تؤيه وتحنو عليه وتسانده أشد المساندة وتواسيه.

وأتى الإسراء والمعراج بعد ما أصاب النبي ﷺ في رحلته إلى الطائف عدم قبول دعوته فقد أكرم الله -عز وجل- نبيه محمداً ﷺ وشدّ من أزره، ونصره من خلال حادثة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

وقد اختلف في تحديد الزمن الذي وقع فيه الإسراء والمعراج

- ١- ف قيل: كان الإسراء في السنة التي أكرمها الله فيها بالنبوة، واختاره الطبري.
- ٢- وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، ورجح ذلك النووي والقرطبي.
- ٣- وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة.
- ٤- وقيل: كان قبل الهجرة بستة عشر شهراً، أي: في رمضان سنة ١٢ من النبوة.

٥- وقيل: كان قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي: في المحرم سنة ١٣ من النبوة.

٦- وقيل: كان قبل الهجرة بسنة، أي: في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

(١) سورة الإسراء، آية: ١.

وردت الأقوال الثلاثة الأولى بأن خديجة -رضي الله عنها- توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء.

أما الأقوال الثلاثة الباقية، فلم أجد ما أرجح به واحداً منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء كان متأخراً جداً^(١).

فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري وعروة بن الزبير، أن الإسراء إلى بيت المقدس كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة^(٢).

وقال ابن حجر -رحمه الله-: إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعثة، وإلى ذلك ذهب الجمهور من علماء الحديث والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل^(٣).
لقد كان الإسراء والمعراج مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان، إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وما لا قى أثناءه من جوع وحرمان.

إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها- وبعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيائها وعبيدها، بعد هذه الآلام كافأ الحبيب حبيبه، فرفعه إليه، وقربه وأدناه، وخلع عليه من حلل الرضا، ما أنساه كل ما كان قد لاقاه، من حزن وألم ونصب وتعب^(٤).

(١) الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري ٢٠١.

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ٢٣٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٤/١٥.

(٤) هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا مُحب، أبوبكر الجزائري ١٣٥.

لم يكن الإسراء والمعراج مجرد حادث فردي بسيط، رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى، وتجلت له ملكوت السموات والأرض مشاهدة عياناً — بل زيادة على ذلك — اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على دلالات دعوية عظيمة كانت بمثابة المنارات على طريق الدعوة الإسلامية، فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه، وهما: سورة الإسراء، وسورة النجم أن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، فقد التقت في شخصه، وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى الأنبياء خلفه فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته، وصلاحياتها لاختلاف الزمان والمكان، جاء الإسراء خطأً فاصلاً بين الناحية الضيقة المحلية المؤقتة، وبين الشخصية النبوية العالمية، جاء الإسراء وأعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة والزعماء الذين لا تتجاوز مواهبهم وجهودهم ودوائر كفاحهم حدود الشعوب والبلاد، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التي يولدون فيها، إنما هو من جماعة الأنبياء والرسل — عليهم الصلاة والسلام — الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض، ويحملون رسالات الخالق إلى الخلق، وتسعد بهم الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها، وعهودها وأجيالها"^(١).

"جاءت هذه المعجزة، بعد المحن التي ابتلي بها رسول الله ﷺ لتجدد عزيمته الرسول ﷺ ولتدل على أن هذا الذي يلاقه من قومه ليس سببه تخلي الله — عز وجل — عنه، وإنما هي سنة الله مع أحبائه في كل عصر ومصر، وبينت للرسول ﷺ أن المستقبل لدينه، وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين، وبينت له أن الأرض إذا ضاقت في وقت، فإن أهل السماء يقفون له مستقبلين ومرحبين"^(٢).

(١) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسيني الندوي ١٤٩-١٥٠.

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ٢٣٩-٢٤٠.

كما أن هناك دلالة دعوية أخرى للإسراء والمعراج، وذلك بتمحيص المؤمنين واختيارهم، لأن تلك المعجزة التي وقعت للنبي ﷺ قلبت موازين الفكر لدى المشركين، وأسقط في أيديهم، حتى إنهم أرادوا اختبار أبي بكر -رضي الله عنه- عندما أخبروه بما أخبر به النبي ﷺ من وقوع الإسراء والمعراج فما كان من أبي بكر -رضي الله عنه- إلا أن صدّق ما أخبر به النبي ﷺ، إن لمعجزة الإسراء والمعراج دلالات دعوية عظيمة في تاريخ الدعوة لأن تلك المعجزة كانت بداية فتح عظيم ومبارك للدعوة الإسلامية، فبعد الإسراء والمعراج انفرجت الأزمان، وذلت العقبات التي كانت تعترض طريق الدعوة، ولاحق بوادر النصر والتأييد التي هيأها الله -عز وجل-.

التماس الإيواء والنصرة في دعوة القبائل:

إن من ينظر في تاريخ الدعوة إلى الله في الفترة المكية، يدرك أن رسول الله ﷺ وبرغم ما كان يعترضه من عقبات ومشكلات في طريق الدعوة، إلا أنه ﷺ لم يترك الدعوة إلى الله لحظة واحدة، حتى في أحلك الظروف وكان يطمح في نشر دعوته بين من يعرف، ومن لا يعرف، فكان ﷺ كلما سمع بقبيلة قادمة إلى مكة، سارع إلى دعوتها، لا سيما من يتوسم فيهم القوة والمنعة والنصر، حيث كانت الدعوة بحاجة إلى الإيواء والنصرة في مواجهة تحدي المشركين للدعوة وللنبي ﷺ ولعل ذهاب النبي ﷺ إلى الطائف، كان طمعاً في نصرة أهلها وحمايتهم ومنعتهم للدعوة، فقد كان الرسول ﷺ في حركة دائبة للبحث عن مكان يعبد الله فيه آمناً، ولذا كان أمره للصحابة -رضي الله عنهم- بالهجرة إلى الحبشة، وذهابه هو إلى الطائف، ثم عرض نفسه على القبائل، وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات مهمة للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل، وغيرهم، وكان يطلب من ذوي الشأن أن يحموه، دون أن يكرههم

على دعوته ومما كان يقوله في هذه المواسم: "هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي" (١).

"ويا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوني وتمنعوني حتى أئين عن الله ما بعثني به" (٢)، وكان عمه أبو لهب يسير خلفه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من حديث قال: "هذا يدعوكم إلى أن تفارقوا دين آبائكم، وأن تسلكوا اللات والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أقيش إلى ماجاء به من البدعة والضلال" (٣).

وقد دعا رسول الله ﷺ عدداً من القبائل، فأبوا مثل: كندة، وبنو عبد الله من كلب، وبنو حنيفة، وكان ردهم عليه قبيحاً، وبنو عامر بن صعصعة.. وربيعه وبنو شيان، الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، وقد تعللوا بحجج منها الرغبة في التريث لحين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: "وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثاً، ونؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤيدك ونصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الرد إذ أفصحتهم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره، إلا من أحاط الله من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: في القرآن، صحيح سنن أبي داود، الألباني ٨٩٧/٣ رقم ٤٧٣٤، وأخرجه ابن ماجه في: المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، صحيح سنن ابن ماجه، الألباني ٤٠/١ رقم ٢٠١.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٧٤/٢.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٩٢/٣ رقم ١٦٠٦٦، وقال الأرئوط: صحيح لغيره ٤٠٥/٢٥، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ٢٤٢، السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ١٥١.

يورثكم الله أرضهم و ديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله
وتقدسونه، فقال النعمان بن شريك: "اللهم نعم" فتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا
أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾^(١).
وقد سر رسول الله ﷺ من أخلاقهم^(٢).

بشائر النصر:

لم يكف رسول الله ﷺ عن الدعوة إلى الله، وعرض نفسه على القبائل ففي
السنة الحادية عشرة من البعثة، التقى رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على
القبائل رهطاً من الخزرج، فدعاهم إلى الإسلام، وعرضه عليهم، وتلا عليهم
القرآن.

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم،
واليهود أهل كتاب، وكانو يسمعونهم يخبرون بني قحظة زمانه، فكان إذا
وقع بينهم وبين اليهود نفرة، أو قتال قال لهم اليهود: إن نبياً مبعوثاً الآن قد
أظل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى
الإسلام، فقال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به
اليهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه وصدقوه، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا
قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم
عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين،
فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك^(٣).

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥-٤٦.

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ٢٤٣.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١/٤٢٨-٤٢٩.

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل فلما قدموا المدينة، ذكروا لإخوانهم رسول الله ﷺ ودعواهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ^(١).

تحقق الإيواء والنصرة للدعوة:

لقد أثمرت جهود النبي ﷺ في دعوة القبائل والحرص على لقاء ذوي الشأن ثماراً طيبة، حيث كان يطمع ﷺ في تحقق الإيواء والنصرة للدعوة، وبالفعل كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية، بمثابة القاعدة الأساسية لتحقيق الإيواء والنصرة للدعوة، حيث شرح الله صدر وفد الأوس والخزرج للإسلام وحماية الرسول ﷺ والمسلمين، والدعوة ومناصرتهم.

أولاً: بيعة العقبة الأولى:

لقد أثمرت دعوة هؤلاء النفر الذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وحل موعد الحج في الموسم الثاني، فحاء إلى مكة، اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، وعقد نيتهم على لقاء رسول الله ﷺ فبعضهم ممن لقي رسول الله ﷺ في الموسم الماضي، وآمن به، فلقوا رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بايعوه، وكانوا يسألونه عن الإسلام و تعاليمه، وعن عقيدة التوحيد وأثرها في النفوس وأقبل النبي ﷺ مفعماً بالغبطة والسرور يتلو القرآن وشعر النبي ﷺ بإيمانهم، فطلب إليهم أن يبايعوه. جاءت المبايعة لرسول الله ﷺ بألفاظ متعددة ومنها: قول عبادة بن الصامت — رضي الله عنه —: أن الرسول ﷺ قال لهم: "تعالوا بايعوني ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني

(١) المرجع السابق ٤٢٩، السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ١٥٣.

في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه" فبايعوه على ذلك^(١).

وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم، بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى "مقرئ المدينة" وكان مترله على أسعد بن زرارة.

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة، خرج به يوماً، يريد دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، فدخل في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين -وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك-، فلما سمعا بذلك، قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانهما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا، فأخذ أسيد حربته، وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب إن يجلس أكلمه، وجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً، وقال ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا، إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب، أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: انصت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب عن الإسلام، وتلا عليه القرآن، قال: فو الله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن

(١) أخرج البخاري في كتاب: الإيمان ١٢/١ رقم ١٨، وبرقم ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩، ٤٨٩٤،

٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٦٨٧٣، ٧٠٥٥، ٧١٩٩، ٧٢١٣، ٧٤٦٨.

تدخلوا هذا الدين؟، قالوا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبه، وتشهد وصلي ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن -سعد بن معاذ- ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم، فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف أسيد على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة، خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك - وليخفوك، فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصت، ثم ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتلله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالوا تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، ففعل ذلك ثم أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نلخف بالله، لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم، قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمنا نقيبة، قال: فإن

كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، إلا رجل واحد وهو الأصيرم، تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبي ﷺ: عمل قليلاً وأجر كثيراً^(١).

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة، يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام، حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة^(٢).

لقد تعاون أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير - رضي الله عنه - على الدعوة إلى الله، وعملا في الترغيب في دخول الإسلام، وكان لهما في ذلك أساليب لطيفة، ومداخل محبة إلى القلوب، وتلك أرض يثرب، أرض الصدق والإيمان والصفاء، وصاحبة الاستعداد لقبول الإسلام وحمائته، وأولئك هم أهلها في الغالب من الأوس والخزرج، استجابوا لدعوة الإسلام قبل مجيء رسول الله ﷺ إليهم، وقبل أن يصبحوا الأنصار الكرام الذين أعز الله بهم الإسلام، وأيد بعزمهم رسوله الكريم بالنصر المبين^(٣).

إن مرحلة النصر والمؤازرة، هي المرحلة التي يتكون فيها لدى المدعو الفكرة الكاملة عن الدعوة التي اقتنع بها، وبدوره يعمل على نشرها وذيوعها،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: ثبت اللجنة للشهيد ١٥٠٩/٣ رقم ١٩٠٠.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٤٣٤/١-٤٣٨.

(٣) انظر: خاتم النبيين محمد ﷺ، سميح عاطف الزين ١١٤-١٢٠.

ونصرتها في كل مكان وبهذا يتم التكامل بين الداعي والمدعو، ويصبح المدعو من الدعاة إلى الحق العاملين على نشرها وتمكينه، وهذا هو منهج الرسول ﷺ في الدعوة، حيث كان يعرضها على الناس فرادى، كما فعل مع أبي بكر وعلي وغيرهما، وكما كان يعرضها على الجماعات والمجتمعات فكان يتحول بالأسواق وأماكن التجمعات وموارد المياه، وكان يزور البلدان فذهب إلى الطائف ليدعو ثقيفاً، وكان يكرر اللقاء، كما فعل مع وفدي الأنصار في العقبة الأولى والثانية، وكان يرسل لهم من يعلمهم ويتعهدهم الفينة بعد الفينة، فأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة، ومعاذاً إلى اليمن^(١).

ثانياً: بيعة العقبة الثانية:

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة، قدم مكة لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل مسلمو الخزرج والأوس فيما بينهم، حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة، ويخاف؟ فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية، أدت إلى الاتفاق على تحديد زمان ومكان اللقاء، وأن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة من ظلام الليل.

قال كعب بن مالك الأنصاري - رضي الله عنه - ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها... فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا في رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل

(١) علم نفس الدعوة، د. محمد زين الهادي ٢٧٢-٢٧٣.

تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب -أم عمارة- وأسماء بنت عمرو بن عدي، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج -وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها- إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فمن رأيهم مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبي إلا الانحياز إليكم، واللاحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن النبهان، فقال يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حباً، وإنا قاطعوها -يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسلم من سلمتهم".

وبعد الاتفاق على شروط هذه البيعة، وقبل الشروع في عقدها، أراد اثنان من الأنصار، ممن أسلم في مواسم حج عام إحدى عشرة واثنى عشرة من المبعث وهما: العباس بن عباد بن نضلة، وأسعد بن زرارة، أراد أن يبيناً لقومهما حقيقة وخطورة الالتزام بهذه البيعة، حتى يبايعوا على علم ويقين تام، وليعرفا ويتأكدا من مدى استعداد الأنصار للجهاد والاستشهاد، قال العباس بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا هكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، وأسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على هكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذ على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله ونحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وقال أسعد بن زرارة عندما قام الناس للبيعة: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن يعضكم السيوف، فإذا أنتم تصيرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا له: يا أسعد أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها، وعندما تأكد لأسعد موقف قومه، ضرب على يد رسول الله ﷺ أي: صافحه مبايعاً ثم تتابع القوم رجلاً رجلاً لمبايعة الرسول ﷺ مبشراً بالجنة من وفي بها^(١).

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٤٤١-٤٤٣.

وأما بيعة المرتين اللتين شهدتا الواقعة، فكانت قولاً، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط غير أنه يبائعهن بالكلام"^(١).

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثني عشر زعيماً يكونوا نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم، في تنفيذ بنود هذه البيعة، فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس^(٢).

بنود البيعة:

قال جابر: قلنا يا رسول الله علام نبايعك؟ قال:

- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.
- وعلى النفقة في العسر واليسر.
- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- وعلى أن تقوموا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.
- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة^(٣).

إن من يتأمل في بيعة العقبة الثانية، يدرك أن تلك البيعة كانت حدثاً تاريخياً، له أهميته في تاريخ الدعوة، حيث كان في هذه البيعة من الأسرار ما يعد مبادئ للاتفاقات وللمؤتمرات مثل:

تحديد المكان والزمان، اختيار منى وشعب العقبة وموسم الحج من الأمور المهمة، فمثل هذا المكان على رغم ازدحامه بالناس، لم يكن يسمح باكتشاف

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: كيفية بيعة النساء ١٤٨٩/٣ رقم ١٨٦٦.

(٢) البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي ١٦٦/٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٢٢/٣ رقم ١٤٤٩٦، وقال الأرئوط: إسناده صحيح ٣٤٨/٢٢.

الاتفاق، أو معرفة التحركات، بسبب كثرة انشغال الناس في منازلهم، وطعامهم وشرابهم، والموسم مقصد للجميع، لا يستغرب من يأتي إليه.

وتحديد الوقت: بعد ثلث الليل الأول، قال لهم: لا تنبهوا في ذلك الوقت نائماً، ولا تنتظروا غائباً، لقد كان رسول الله ﷺ يدرك أثر ذلك العمل الذي يؤخر المرء عن هدفه، ويحدث رفع الأصوات، وقد خشي أن تعلم قريش بما اتفقوا عليه، فيسعوا لنقضه والتأثير على المجتمعين.

والصدق في القول والعمل، والصراحة في الحق، فهم أناس جاؤوا مصممين على التزام ذلك الاتفاق، مهما بلغ، وقد قالوا في أول المقابلة: والله لو كان لنا في أنفسنا ما ننطق به لقلناه، ولكننا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهجنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن وفد يثرب جاء بنفسه إلى رسول الله ﷺ عن طوعية واقتناع ورغبة في الإسلام، لم يأت بالسيف، ولا بالزمام، ولا مصلحة مادية، وهذه هي الدعوة الإسلامية، دعوة واضحة، جاءت لهداية البشر ولإسعادهم^(١).

(١) انظر: النهج المحمدي، عبدالعزيز المسند ٨٥-٨٦.

المبحث الثاني: الإيواء والنصرة في العهد المدني:

تحقق الإيواء والنصرة للدعوة في العهد المدني:

الهجرة إلى المدينة:

لاشك أنه بعد لقاء النبي ﷺ بالأوس والخزرج في العقبة، ومبايعتهم للنبي ﷺ وانشرح صدره للاتفاق الذي تم، وما توصل إليه من تأمين دار للدعوة، لها منعها وقوتها في الجزيرة العربية، فبعد أن كان قلقاً غير مستقر، أصبح آمناً مسروراً، لأنه وضع النقطة الأولى لنجاح دعوته، وفي وجود متنفس لأصحابه - رضي الله عنهم -، وقد أخبر أصحابه بما تم بينه وبين أولئك النفر من الأوس والخزرج، وعن نجاح مصعب بن عمير في تعليمه وشرحه للإسلام لأهل يثرب.

عند ذلك تنفس المسلمون الصعداء، وفرحوا فرحاً شديداً، لأنهم أحسوا بأن الضيق الذي يعانونه في مكة قد انفرج، وأن الأذى قد ذهب، وأن الأمل قد اتسع وقال لهم النبي ﷺ إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً، وداراً تأمنون بها فخرجوا أرسالاً، ولما يعلمه الرسول ﷺ من شدة ما يلقيه من قريش، فقد أذن لهم بالانتقال إلى طيبة خفية، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين ليلاً، حتى علم بذلك أعداء الدعوة، وصناديد قريش، فقاموا بجولة حول مكة، وأحصوا عدد البيوت الخالية، فوجدوها كثيرة^(١).

وبالطبع فإن ذلك لم يحدث من فراغ، أي هجرة المسلمين إلى المدينة، فلو كانت حماية و منعة لهم في مكة، لما أقدموا على الهجرة منها، خاصة و أنها أحب بلاد الله إليهم فمنذ أن أعلن الرسول ﷺ الدعوة، وهو يتعرض لشتى

(١) النهج الحمدي، عبدالعزيز المسند ٨٩.

أنواع المضايقات هو ومن أسلم، ولذا كان رسول الله ﷺ يفكر دائماً في طلب الحماية خارج مكة، عندما استعصت عليه مكة، فكانت هجرة الحبشة، الأولى والثانية، والذهاب إلى الطائف، وأخيراً الهجرة إلى المدينة.

ومما يؤكد أن الابتلاء والاضطهاد كانا سبباً من أسباب الهجرة إلى المدينة، قول بلال ابن رباح - رضي الله عنه - عندما هاجر: "اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمّية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء" - يعني بذلك أرض يثرب حيث كانت تنتشر الحمى والأمراض فيها ولكن رسول الله ﷺ دعا ربه فطيب الله مناخها وأحبها المسلمون - عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي ﷺ للمسلمين بمكة: "إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة"^(١). ذكر البخاري أن أول المهاجرين مصعب بن عمير، وعبدالله بن أم مكتوم^(٢) باعتبار أن مصعب بن عمير كان ينوي الإقامة بالمدينة، لتعليم أهلها الإسلام، وإن كان ابن إسحاق وابن سعد ذكرا: أن أول من هاجر أبو سلمة^(٣) بن عبد الأسد^(٤) وقد

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٣٠٦/٤ - ٣٠٩ رقم ٣٩٠٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٣١٧/٤ رقم ٣٩٢٥.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١٢٢/٢، الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٢٦/١، فتح الباري، ابن حجر ١١٩/١٥.

(٤) وقد ذكر ابن حجر أنه يمكن الجمع بين حديث أهل المغازي والسير وحديث البخاري، بحمل الأولوية على صفة خاصة، هي أن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة، بخلاف مصعب، فكان على نية الإقامة بها لتعليم أهلها الإسلام، فتح الباري ١١٩/١٥، وللاستزادة انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية د. مهدي رزق الله ٢٦٠.

عانى المسلمون معاناة شديدة في هجرتهم من مكة إلى المدينة فهذا على سبيل المثال: أول المهاجرين أبو سلمة، هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم، فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، وتخاذبوا الغلام بينهم، فخلعوا يده، وذهبوا به، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وكانت أم سلمة - رضي الله عنها - بعد ذهاب زوجها، وضياح ابنها تخرج كل غداة إلى الأبطح تبكي حتى تمسي، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: الحقى بزواجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبتها، وخرجت تريد المدينة، وليس معها أحد من خلق الله، حتى إذا كانت بالتنعيم، لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وبعد أن عرف حالها، شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء، قال: زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(١).

٢- هجرة صهيب بن سنان الرومي: بعد رسول الله ﷺ فلما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثير مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ٤/٤٢٣، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق:

مصطفى السقا وزملائه ١/٤٦٨-٤٧٠.

قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب" ^(١).

وهذا يؤكد تضحية المسلمين في مكة بأموالهم وديارهم، وفراقهم لأهلهم وذويهم فرار بدينهم، ونصرة لدعوة نبيهم محمد ﷺ، وقد نزل في شأن صهيب وأمثاله ممن ضحوا في سبيل الله قرآن يتلى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ^(٢).

هجرة النبي ﷺ:

لسنا بصدد الرصد الدقيق للأحداث كما وردت في كتب السيرة، وإنما نتاول الحدث من خلال التركيز على جوانب التضحية والنصرة والإيواء حسبما يبرز في كل موقف من مواقف المسلمين الأوائل الذين ضحوا بكل ما يملكون حتى بأنفسهم نصرة لدعوة نبيهم محمد ﷺ، ومن هذا المنطلق، فإن تركيزنا في معالجة قضايا البحث يكون على الجوانب سالفة الذكر ففيما يتعلق بهجرة النبي ﷺ فإنه بعد خروج المؤمنين من مكة أرسالاً -أي جماعة إثر جماعة- إلى المدينة مهاجرين، ولم يبق منهم إلا محبوس أو مفتون، كان النبي ﷺ

(١) المرجع السابق ٤٧٠/١، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة ٤٦٧/١، البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبد الله التركي ٤٣٤/٤، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين في كتاب معرفة الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب: مناقب صهيب بن سنان مولى رسول الله ﷺ ٤٩٠/٤ رقم ٥٧٥٣، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ويخرجاه.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

في انتظار الإذن له من ربه — عز وجل — بالهجرة، وأبقى معه علياً لحاجته إليه، وأما أبوبكر فإنه كثيراً ما كان يستأذن النبي ﷺ في الهجرة فيقول: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً"، فيطمع أبوبكر أن يكون رسول الله ﷺ هو صاحب وفي هذه الأثناء كان رجال قريش يتخوفون منه ﷺ أن يلتحق بدور الأنصار، وهم ذوو شوكة ومنعة، وقد لحق بهم المؤمنون، فقرروا عقد اجتماع لهم بدار الندور يحضره أولو الرأي والمشورة منهم.

وقد ذكر القرآن الكريم مضمون الآراء التي طرحت في ذلك الاجتماع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ^ط وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ^(١)﴾، وبعد مناقشات ومشاورات ما بين قائل بالحبس، وقائل بالنفي إلى أن استقر رأيهم على القتل، وهذا ما رآه أبو جهل أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيضربون جميعاً بأسياфهم محمداً ﷺ، ضربة رجل واحد ليتفرق دمه بين القبائل، بعد اتخاذ هذا القرار، أتى جبريل -عليه السلام- النبي ﷺ وأخبره به، وأمره بعدم المبيت على فراشه هذه الليلة، والهجرة. عندئذ ذهب رسول الله ﷺ إلى أبي بكر يخبره أن الله أذن له بالهجرة وبصحبه له في الهجرة، والتمس رسول الله ﷺ وأبوبكر -رضي الله عنه- التدابير الواقية من المشركين - بعد تدبير الله عز وجل - ولكن ما التمس رسول الله ﷺ من الأسباب المادية بعد التوكل على الله، وإحاطته مثل التمويه على المشركين بتغيير مسار الرحل إلى جنوب مكة، بدلاً من شمالها، واستئجار دليل لمعرفة مسالك الصحراء،

(١) سورة الأنفال، آية ٣٠.

واستكتامه الخبر، وتزويد أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - لهما بالزاد، وتكليف عبدالله بن أبي بكر - رضي الله عنهما - بجمع أخبار قريش، وإبلاغها لهما، وتكليف عامر بن فهيرة برعي الغنم نهاراً، وإراحتها ليلاً حول الغار، ليطعما من لبنها، وأمره ﷺ علياً بالنوم في فراشه، وطمأنته أنه لن يصل إليه منهم مكروه بإذن الله.

لقد أمر الله الرسول ﷺ بالهجرة، بعد أن مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، وعندما أمره الله بالهجرة، أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾^(١)، وقد فشلت قريش في خطتها فشلاً ذريعاً، مع غاية التيقظ والتنبيه، إذ خرج رسول الله ﷺ من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذرهم على رؤوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢)، فلم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً^(٣).

ولما كان المشركون يطلبون رسول الله وأبابكر وهما في الغار، سمع أبو بكر قرع نعال الطالبين، فخاف حزناً، وقال: يا رسول الله لو يرفع أحدهم قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ: "ما بالك يا أبابكر باثنين ثالثهما"، وفي هذا

(١) سورة الإسراء، آية ٨٠.

(٢) سورة يس، آية ٩.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١/٤٨٣، زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق:

شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط ٣/٥٢.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(٤)، وهذا يؤكد رعاية الله - عز وجل - وحايته ومنعته للنبي ﷺ.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - ألا تنصروا رسوله محمداً ﷺ فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئاً، فقد نصره الله في أقل ما يكون وأذله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فألجؤوه إلى أن يخرج ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي: أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: لما هربا من مكة لجأ إلى غار ثور في أسفل مكة، فمكثا فيه ليرد عنها الطلب، فهما في تلك الحالة الحرجة شديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبوهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال، إذ يقول النبي ﷺ لصاحبه أبي بكر لما حزن واشتد قلقه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فأنزل الله سكينته عليه أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبت للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وأيده بجنود لم تروها وهي: الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي: الساقطة المخدولة فإن الذين كفروا، قد كانوا على حرد

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠.

قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذة حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله، ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه. ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع.

فإن النصر على قسمين:

الأول: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم، بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا ويستولوا على عدوهم، ويظهروا عليهم.

الثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله تعالى إياه، أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله ﷺ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، من هذا النوع^(١)، وهنا يقرر التاريخ أن وسائل النصر ليست المادة وإن كانت سبباً ما، وإنما وسيلة النصر هي: المنح الإلهية والمدد الرباني، يستبصر ذلك المسلم في فهمه لآيات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ اللَّهُ رَمِي﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٤)، ومع هذا الاستبصار لهذه المعاني المشرقة، يمضي التاريخ المصاحب للفتح الإسلامي ليؤكد ذلك في بدر والخندق والحديبية وفتح مكة... إلخ.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢) سورة الأنفال آية ١٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٩.

(٤) سورة المدثر، آية: ٣١.

وتستقر القاعدة الأساسية في سويداء عقيدة المسلم^(١) ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ

يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢).

الدعوة في مأواها الجديد:

هياً الله عز وجل لرسوله ﷺ ومن هاجر من قبله من المسلمين سبيل الهجرة إلى المأوى الجديد الذي أراده سبحانه للدعوة، حيث الإيواء والنصر الذي التزم به الأنصار أمام رسول الله ﷺ ووفوا بالتزامهم حيث احتفى الأنصار بقدوم النبي ﷺ، ففرق كبير بين مطاردة أهل مكة من المشركين للنبي ﷺ وتآمرهم على قتله، وبين اشتياق ولهفة أهل المدينة والتي لا يمكن وصفها، لأن جذوة الإيمان بالله وبرسوله ﷺ تزيكها، فهي دفاقة متجددة ملؤها الوفاء والإخلاص والحب، فعندما بلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد الحر رجعوا إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة أربع عشرة من المبعث، وهي السنة الأولى من الهجرة، الموافق للثالث والعشرين من سبتمبر سنة اثنتين وعشرين وستمئة من الميلاد^(٣)، خرجوا على عادتهم، فلما حمى الحر رجعوا، وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام يثرب لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب وفي رواية ابن إسحاق "يا بني قيلة" يعني الأنصار، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وسمعت الرجة

(١) تصورات في الدعوة والثقافة الإسلامية، د. رؤوف شليبي ١٥٠-٥١.

(٢) سورة محمد آية: ٧.

(٣) رحمة للعالمين، القاضي محمد سليمان المنصور فوزي، تعريب: د. مقتدى حسن ياسين

الأزهري ٩٦.

والتكبرية في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة وكان من لم ير الرسول ﷺ من قبل يحيي أبا بكر ظناً منه أنه الرسول ﷺ، وعندما اشتد الحر قام أبو بكر، فأظل النبي ﷺ بردائه، فعرفوا رسول الله ﷺ فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه والوحي ينزل عليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾^(١)، وصاح النساء والخدم والغلمان: جاء محمد، جاء رسول الله، الله أكبر، وأنشدوا:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع^(٢)

ثم سار حتى نزل قباء في بني عمرو بن عوف -من الأوس- على كلثوم بن الهدم لمدة أربع عشرة ليلة، فيها أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد الهجرة، وبعد ذلك ركب رسول الله ﷺ بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار -أخواله- فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل^(٣).

دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد الجمعة في جو مشحون بالفرح والبهجة والسرور، وكان لا يمر على دار من دور الأنصار، إلا أخذوا بخطام راحلته

(١) سورة التحریم، آية: ٤.

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، تحقيق: د. عبدالمعطي قلعجي ٥٠٦/٢ وما بعدها، البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبد الله التركي ٤٨٨/٤.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٣٦/٢ - ٢٣٧، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة ٤٩٦/١.

قائلين: هلم إلى العدد والعدة والسلام والمنعة، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تنزل تسير به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فبركت فلم ينزل عنها، حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت وبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري، وبادر أبو أيوب إلى الرحل، فأدخله بيته، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المرء مع رحله، ونزل ﷺ عند أبي أيوب^(١).

إن التصرف الحكيم والعلاج النفسي الذي خرج به رسول الله ﷺ من إحراج الأنصار في تركه ناقته تختار المنزل، فإن ذلك يعني أموراً دقيقة لا يدركها إلا العقلاء المفكرون، وكل ذلك بإرادة الله العزيز العليم، لقد كان الرسول ﷺ مسروراً بمقدمه المدينة، فرحاً بما رأى من عواطف الأنصار، لقد انتهى المطاف برسول الله ﷺ في دار آمنة آوته، وفتحت قلبها له، ولدعوته، فلا غرو أن يستريح، وأن يسر، لأنه نجا بدعوته من الأعداء، وكان هدفه من أول ما أوحى إليه، أن يجد لدعوته ملجأً ونصيراً، وتحقيق أمله في دار هجرته تلك، وعندما كان رسول الله ﷺ في طريقه من قباء إلى المدينة، أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وصلى الجمعة بمن معه من المهاجرين والأنصار، وخطب أول خطبة في أول صلاة جمعة صلاها وقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن، والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه، ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه - ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه-: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك فما قدمت

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١/٤٩٤-٤٩٦، زاد المعاد، ابن القيم،

تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ٦١٣/٣.

لنفسك، فينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار، ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة وبركاته" (١).

لقد راعى رسول الله ﷺ في خطبته عدة أمور:

١ - مراعاة ظرف القوم لأنهم عجلون وفي غير بلادهم، وقد أمضوا فترة من اليوم في استقبال رسول الله ﷺ ومرافقته.

٢ - أن الذين كانت الخطبة في حيههم، هم ممن لديهم أغنام كثيرة، فلامس رسول الله ﷺ في خطبته المعنى الخاص بهم، وكأنهم وحدهم هم المخاطبون.

٣ - الحاجة إلى الإنفاق في تلك الأيام التي قدم فيها أناس مهاجرون، ليس معهم ما يحملهم ولا ما يقوتهم، وليس لهم ما يؤيهم، فالنفقة إذا متعينة، وإذا لم ينفق الأنصار على المهاجرين الذين لا يجدون ما ينفقون، فإنهم سيموتون جوعاً، أو يتركون دار الهجرة إلى سواها، ولم يفت رسول الله ﷺ في خطبته القصيرة أن يراعي شعور الأنصار والمهاجرين، الذين لا يجدون ما ينفقون أن يفتح باباً لعمل الخير، وأملأ في المشاركة في الأجر، فأخبرهم أن الكلمة الطيبة ممن لا يجد ما ينفق تكفي عن النفقة ويقبلها الله، ويضاعفها أضعافاً مضاعفة" (٢). إن رسول الله ﷺ منذ أن وطأت أقدامه أرض يثرب، بدأ يحدد ملامح المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، فبدأ بتأسيس المسجد

(١) انظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، تحقيق: د. عبدالمعطي قلعجي

٥٢٤/٢ وما بعدها، البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ٥٢٨/٤ وما بعدها.

(٢) انظر: النهج الحمدي، عبدالعزيز المسند ١٠٣-١٠٤.

الذي هو نواة المجتمع المسلم حيث كانت للمسجد آنذاك مهام كبيرة ومتعددة في تلك المرحلة المهمة والحاسمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فكيف يجمع بين المسلمين -مهاجرين وأنصار-، وكيف يتم التشاور؟ إلا في المسجد، ثم قام النبي ﷺ ببناء الدولة الإسلامية التي تقوم على حماية الدعوة ونصرتها، مما تطلب الالتحام بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة، وصهر الجميع في بوتقة الإسلام، وكذلك عقد المعاهدات، والتأكيد على الوجود الإسلامي المتنامي في المدينة وإعلام جميع الناس بذلك، وفي المدينة بدأت التكاليف الشرعية والعبادات، وكان لابد من بيان ميثاق التحالف الإسلامي، فبينه رسول الله ﷺ وكانت هناك أخطار تحدق بالمسلمين في المدينة، من قبل قريش وحلفائها، وكثير من التحديات التي قبلها المسلمون بعد أن أصبحوا قوة لا يستهان بها، وتؤكد ذلك عملياً في بدر وما تلاها من غزوات وسرايا، وهذا بفضل الله تعالى، ثم بالإيواء والتناصر بين المسلمين^(١).

بداية عهد جديد للدعوة الإسلامية:

في الماضي - في مكة - كان المسلمون مستضعفين وقلّة، وفي المدينة أصبحوا كثرة متلاحمة قوية وهذا يمثل عهداً جديداً للدعوة الإسلامية، ومرحلة انطلاق، تملي المؤاخاة والالتحام، فقام رسول الله ﷺ بوضع أسس هذا العهد الجديد في المدينة للدعوة، بالمؤاخاة وإزالة رواسب الجاهلية بالتحالف الإسلامي والتناصر بين المسلمين، لمواجهة الأخطار الخارجية، والتأكيد على قوة المسلمين التي تمكنهم من إبلاغ الدعوة الإسلامية.

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبد الله التركي ٥٥٩/٤، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلنجي ٥٤٤/٢ وما بعدها.

أولاً: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

قام رسول الله ﷺ بأول عمل في المدينة ببناء مسجد في المكان الذي بركت فيه ناقته، ليصلي المسلمون فيه، وليكون مكاناً لاجتماعهم، وتشاورهم وتعليمهم أمور دينهم، وإيواء ضعفاء وفقراء المهاجرين، ومكاناً لاستقبال الرسل والسفراء الذين يقدون على النبي ﷺ، فعمل على تدعيم أركان الإسلام بالمدينة^(١)، وبعد ذلك قام رسول الله ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لأنه عندما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة، لم يكن بأيدي معظمهم شيء لأنهم تركوا أموالهم خلفهم، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا أهل زراعة فقد أعطاهم الأنصار كل ما يستطيعونه من فضل، وأعطوهم النخل والأرض ليعملوا فيها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطيت له منيحة محضة، واستغنوا عنها، عندما فتح الله عليهم خير، وقد رد النبي ﷺ نفسه ما أعطوه من نخل، عندما فتحت عليه قريظة والنضير^(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة، قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقامهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة..."^(٣).

(١) دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين، د. مصطفى أبو ضيف حمد، ٩٠.

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، النووي ٩٩/١٢-١٠١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والتمر حين استغنوا عنها بالفتوح ١٣٩١/٣-١٣٩٢ رقم ١٧٧١.

وكان ذلك الفعل من الأنصار دليلاً على مدى حبهم وإيثارهم المهاجرين وقد شهد الله تعالى لهم بذلك في قوله ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١)، ووصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم: خيراً، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أرضٍ ليست ملكاً لأحد^(٢)، لقد كان رسول الله ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار، ويقول لهما: "تأخيا في الله أخوين أخوين"، فينفذ ذلك إلى قلوبهما، ويذهبان أخوين حقيقة ظاهراً وباطناً، وكان ذلك الإخاء على المواساة والحق والتوارث بعد الموت، حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾^(٣)، وعلى الرغم من هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار^(٤)، فكان أن شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين، بعضهم لبعض وآخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينهم على الحق والمواساة^(٥)، وقد كان رسول الله يرمي من وراء المؤاخاة إلى حل المشكلات التي تتعلق بالمهاجرين، ولا سيما ما يتعلق منها بالأموال المالية، والعمل،

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) أنساب الأشراف، البلاذري ١/٢٧٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦.

(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ٣٠٢.

(٥) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١/٢٣٨.

والسكنى، كما أن بعض المهاجرين، كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فأخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفع الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته لعلّي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة، واستمر إلى ما بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، لأن زيدا مولاهم فقد ثبت أخوتهما، وهما من المهاجرين^(١)، وأخى بين الزبير وابن مسعود، وبين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء وغيرهم من المهاجرين والأنصار ولقد كان المهاجرون يقدرون كرم وسخاء إخوانهم الأنصار، فلم يركنوا إلى ما قدمه الأنصار لهم، بل سعوا لإثبات ذواتهم من خلال العمل والسعي، ومثال ذلك: ما فعله الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف مع أخيه سعد بن الربيع حين قال سعد لعبدالرحمن: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبدالرحمن: لا حاجة لي في مالك، هل من سوق فيه تجارة؟! فدل على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم أخذ يتردد على السوق، يبيع ويشترى، حتى استغنى بماله عن مال أخيه سعد، وتزوج امرأة من الأنصار، أمهرها بنواة من ذهب وطلب منه الرسول ﷺ أن يولم، ولو بشاة بهذه المناسبة^(٢).

لقد كان للتآخي بين المهاجرين والأنصار أبعاداً اجتماعية عظيمة، مثل: إذهاب وحشة وألم الاغتراب، فهم بحاجة إلى الأُنس بإخوانهم، والتكافل بينهم فضلاً عن التناصر والمحبة والمودة، هذا فضلاً عن كون التآخي بين المهاجرين

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١٧١/٢-١٧٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ ٤/٣ رقم ٢٠٤٨، وللإستزادة انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ٥٦٣/٤.

والأنصار يدعم الروابط القوية في المجتمع الإسلامي الجديد، الذي تنتظره
المواقف الكبيرة التي تحتاج إلى همم الرجال، وعزائمهم القوية التي تقوم على
العقيدة الصافية.

ثانياً: ميثاق التحالف الإسلامي:

وكما قام الرسول ﷺ بعقد المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها
ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة
نذكر بعض بنودها بإيجاز:

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب،
ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ - المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم
بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربتهم،
يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم، تفدى عانيها بالمعروف،
والقسط بين المؤمنين.

٣ - وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو
عقل.

٤ - وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة^(١) ظلم، أو إثم
أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥ - وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

٦ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر.

(١) الدسيعة: هي العطية.

- ٧- ولا ينصر كافر على مؤمن.
- ٨- وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم.
- ٩- وأن من تبعنا من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم.
- ١٠- وأن سلم المؤمنين واحدة -لا يسالم مؤمن دون مؤمن-، في قتال في سبيل الله إلا على سواء، وعدل بينهم.
- ١١- وأن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- ١٢- وأنه لا يجير مشرك مאלً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.
- ١٣- وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.
- ١٤- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ^(١).

إننا نستطيع أن نؤكد على أهمية الاتحاد بين المسلمين، ولذا بدأ به رسول الله ﷺ، وكذلك التعاون والتكافل، وغير ذلك من المبادئ الإسلامية، التي حرص رسول الله ﷺ على بيانها لأجل إحلالها في قلوب المسلمين، بدلاً من الأحلاف والأعراف الجاهلية السابقة، ولذا فإن الجميع انصهر في بوتقة الإسلام في ظل أجوائه النقية البعيدة عن العصبية المقتية، حتى يتسنى لأولئك المسلمين أن ينتصروا لدينهم، وذلك ببيان أصول التناصر في الله.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ١/٥٠٢-٥٠٣، البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله التركي ٤/٥٥٥ وما بعدها.

ظهور قوة المسلمين ونصرتهم للدعوة:

حدد رسول الله ﷺ ملامح المجتمع الإسلامي في المدينة بعد الهجرة، وركز على تعليم أصحابه -رضوان الله عليهم- وتربيتهم تربية إيمانية، وإعدادهم إعداداً معنوياً وجسدياً، وكان يحبهم، ويحرص على هدايتهم، ويتفقددهم ويواسيهم، ويعاملهم معاملة طيبة.

وأنزل الله -عز وجل- تكاليفه الشرعية، وفرض الصيام والزكاة، وأقيمت الحدود، أما عن نشر الإسلام، والدعوة إلى الله على بصيرة، فقد كانت بحاجة إلى الجهاد لتذليل العقبات التي تعترض طريق الدعوة.

لقد كان الرسول ﷺ يجاهد في مكة لنشر الإسلام، واستمر ثلاثة عشر عاماً، وبعد هذه الفترة الطويلة الحافلة بالمعاناة والآلام أذن الله لرسوله ومن معه من المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة بحثاً عن المأوى والنصرة التي طالماً عزت على المسلمين في مكة، فلقد كان الرسول ﷺ ينشد المأوى والنصر في مكة، وفي الحبشة، وفي الطائف ولكن لما ضنت مكة بذلك، جادت به المدينة.

وبعد هجرة النبي ﷺ والمسلمين إلى المدينة كانت هناك أخطار تحدق بهم، ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب، قال: "لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه".

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، والتي كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يفرضه عليهم، قال تعالى:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾^(١)،
 وأنزل آيات بين لهم فيها، أن هذا الإذن، إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر
 الله، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
 الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٢).

وبعد الإذن بالقتال بدأ رسول الله ﷺ بالتحركات العسكرية التي كانت
 أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وذلك للاستكشاف والتعرف على الطرق
 المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.

- عقد المعاهدات مع القبائل التي تقع مساكنها على هذه الطرق.
- إشعار مشركي يثرب ويهودها، وأعراب البادية الضاريين حولها بأن
 المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.
- إنذار قريش عقبى طيشها، حتى تفيق عن غيها الذي لا يزال يتوغل في
 أعماقها، عليها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها، وأسباب معاشها،
 فتجئح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن
 الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة،
 حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة، وقد
 أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين قائلاً: "هذه غير
 قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها" ولم يعزم على

(١) سورة الحج، آية: ٣٩.

(٢) السورة السابقة، آية: ٤١، وللاستزادة انظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة،
 البيهقي، تحقيق: د. عبدالمعطي قلعجي ٥٧٩/٢، الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري

أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة -بدل العير- هذا الاصطدام العنيف في بدر.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، أننا لسنا بصدد الحديث عن أحداث الغزوة ولا سردها، إنما الشاهد من حديثنا هنا التركيز على نصرة المسلمين للدعوة إلى الله، وأثر ذلك على مسيرة الدعوة إلى الله، وهذا موضوع البحث بالطبع.

إننا نريد أن نخلص من حديثنا الموجز هنا إلى أهمية الإيواء والنصرة للدعوة وذلك ما اتضح جلياً في الفترة المدنية.

وتصور آيات سورة الأنفال أحداث غزوة بدر حيث يقول تعالى: ﴿كَمَا

أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ
مُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ
﴿١﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
الْشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٣﴾ إِذْ
تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴿٤﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٠﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١١﴾، ويقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

قال ابن كثير - رحمه الله -: ينبه الله تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرتهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطرين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم، لقلنتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم، حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فأواهم إليها وقبض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره، ووسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال قتادة - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٣) قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضللاً،

(١) سورة الأنفال، آية: ٥-١٢.

(٢) السورة السابقة، آية: ٢٦.

(٣) الآية السابقة.

مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرف منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم^(١).

لقد كانت بدر فاصلة بين الحق والباطل، وقد نصر الله المؤمنين فيها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢) وبرز استعداد كل من المهاجرين والأنصار لنصرة دين الله في كل أحداث الغزوة ومن ذلك استشارة النبي ﷺ لأصحابه حيث استشار الناس، وأخبرهم عن مسير قریش، فقام أبوبكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: "يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾"^(٣) ولكن نقول: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به"^(٤)، ثم قال رسول الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣٢/٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢٤.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قصة غزوة بدر ٥/٥٦ رقم ٣٩٥٢.

ﷺ "أشيروا علي أيها الناس"، فوقف سعد بن معاذ وقال: "والله لكأنك تعيننا يا رسول الله، قال: أجل، فقال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا، فامض يا رسول الله لما أردت، ونحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا أحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر الرسول ﷺ لقول سعد ونشطه، فقال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم" (١)، وطلب النبي ﷺ من أصحابه أن يشيروا عليه، كان يعني به الأنصار لأن شروطبيعة العقبة التي كانت بينه وبينهم، لم تتضمن نصرتهم له خارج المدينة، وإنما داخلها فقط، فخاف ألا يقاتلوا معه من خرج لقتاله، فلذا طمأنه سعد بما قال، وسر به.

إن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان، إنما هو حقيقة ذات تكاليف ومعان، وأمانة ذات أعباء ومسؤوليات، وجهاد يحتاج إلى صبر وجلد فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا، بل لابد أن يتعرضوا نتيجة ذلك للفتنة فيثبتوا على الحق.

لقد فهم الصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الحقيقة، ووعتها قلوبهم ومارسوها عملياً، فقد تحملوا الأذى البدني المروع، الذي صب عليهم من أكابر المجرمين، حوصروا في الشعب، وصبروا على الغربة، وهجروا الأوطان وأرخصوا الأهل والمال، فتركوها وراءهم ظهرياً، ورحلوا إلى بلاد بعيدة

(١) السيرة النبوية، ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٣٠٥/٢، البداية والنهاية، ابن كثير،

تحقيق: د. عبدالله التركي ٧٠/٥ وما بعدها.

وهكذا سهلت عليهم الصعاب في سبيل عقيدتهم، وثابروا على نصرته دينهم فقد عانى المسلمون في مكة صنوف العذاب، فقد أخرج ابن إسحاق عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليعذبون أحدهم ويحييونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده" (١).

وهكذا يظهر جلياً مدى العذاب المهين، الذي صب على الصحابة -رضي الله عنهم- ومدى ما تحملوه في سبيل الله، كما يظهر أثر الإيمان، إذا خالط بشاشة القلب كيف يعمل عمله، حتى حقق أولئك رغم قتلهم، وكثرة عدوهم، ما كانوا يصبون إليه من النصر، والتمكين والعزة، والشهادة في سبيل الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢). ولقد كان لتحملهم وصبرهم كفاحهم، أعظم الآثار في انتشار الإسلام، ونجاح الدعوة، ولما كان أمر الدعوة، والقيام بشؤونها أمانة كبيرة، ومسؤولية عظيمة، فكان لابد من الامتحان لتقوى تلك النفوس على القيام بالدعوة وواجباتها، لقد كان من نعم الله تعالى وفضله على المسلمين، وعلى الدعوة الإسلامية أن منح أولئك الصحابة -رضوان الله عليهم- على قلة عددهم، وكثرة عدوهم وقوته، القدرة على الثبات على الحق، وتحمل المشاق،

(١) السيرة النبوية، ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٣/٣٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

والصبر على الأذى في سبيل العقيدة لقد بذلوا الغالي والرخيص في سبيل هذه الدعوة، ضحوا بالنفس، وجادوا بالمال وأرخصوا الأهل والولد، وكل شيء في سبيل هدف واحد، وغاية واحدة، هي جعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

فالمجرة إلى الحبشة وعذاب الصحابة -رضي الله عنهم- بمكة، وهجرتهم إلى المدينة، أكبر مثال على جسامة التضحيات، حيث هاجروا، فارين بدينهم، تاركين أهليهم وأموالهم، منتظرين الفرج من الله^(١).

ومن صور تضحيات الصحابة -رضي الله عنهم-، تضحية عبدالله بن عبدالله بن أبي -رضي الله عنه-، ذلك النموذج الرفيع، فقد شقي بأبيه زعيم المنافقين، فيستأذن رسول الله ﷺ إن كان عازماً على قتله، بسبب ما أصاب المسلمين من شره، أن يقوم بقتله، ويقول معللاً كيف حوله الإيمان وأثر فيه، حتى أصبح حبه المفرط لوالده بغضاً، بعد أن أصبح عدواً لله ولرسوله: يا رسول الله: إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت لا بد فاعلاً، فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري، فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي، يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ بل تترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا^(٢).

(١) انظر: أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، عبدالله بن محمد آل موسى ٣٣٤-٣٤٤.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٣/٣٣٧.

وهذا النموذج من أصحاب رسول الله ﷺ يؤكد على مدى محبة هؤلاء الرجال لدينهم، وسعيهم لنصرته وإعزازه، مما جعلهم لا يكثرثون بأي صلة ولو كانت صلة دم، ولا يبقون على ود أحد، لأن رابطة العقيدة هي الأساس، وهي الأصل، إن أصحاب رسول الله ﷺ أدركوا عظم الأمانة التي يحملونها في الدفاع عن الإسلام فهانت عليهم أنفسهم وأموالهم وأولادهم ونسأؤهم وديارهم، إنهم كانوا ينظرون إلى أفق أرحب، كانت الجنة هي الغاية التي يرومونها وذلك في سبيل نصرته الدعوة الإسلامية، ولا أدل على ذلك من كونهم يجعلون من أجسادهم دروعاً يحمون بها رسول الله ﷺ في كل لحظة، لم تكن الدنيا لها مساحة في قلوبهم.

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى رجال مخلصين، يضحون بكل ما يملكون في سبيل الله، فالإيمان له حقيقة، ولا بد من التأكيد عليها وبلورتها عملياً من خلال السعي لنصرة دين الله.

لقد ظهرت القوة الفعلية للمسلمين، وذلك بعد أن ألف الله - عز وجل - بين قلوبهم، وأزال ما فيها من تنافر وعداوة، ووجه الجميع طاقاتهم وإمكاناتهم للانتصار للدعوة الإسلامية، ولا شك أن وجود مأوى للدعوة، وكذلك توفر من يعمل على نصرتها، أدى بعد توفيق الله، إلى بروز قوة المسلمين، في مواجهة قوى الشرك في المجتمع المكي والمجتمع المدني، وأخذ المسلمون ينتصرون لدعوتهم، وخاضوا المعارك الضارية، ودفعوا حياتهم وأموالهم ثمناً لنصرة دين الله وإعزازه، وأيدهم الله بنصره وأمدهم بمدد من عنده فانتصروا على خصومهم في المدينة وفي مكة، فبعد أن طردوا من مكة بالأمس دخلوها فاتحين منتصرين.

بين الأمس واليوم:

لاشك أن من ينعم نظره في تاريخ الدعوة في مكة، وتاريخ الدعوة في المدينة، ينتابه الدهول من الأحوال والصعاب التي واجهها المسلمون في مكة، وكيف صبروا وصابروا حتى مكن الله لهم في الأرض، فهؤلاء الذين كانوا بالأمس مستضعفين مستذلين تتوق نفوسهم إلى الأمن والأمان، ويبحث رسولهم الكريم ﷺ عن جبهة تأوي وتنصر وتحتضن دعوته، ولا يألوا جهداً في طلب تلك الغاية، فقد أصبحوا -ولله الحمد- سادة أعزة، أعزهم الله وآواهم وأيدهم بنصره، بأن قيض لهم الأنصار وهياً لهم مأوى في المدينة لينشروا دعوتهم ويجاهدوا في سبيله قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

قال ابن كثير -رحمه الله-: هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمناً، وحكماً فيهم، وقد فعل الله تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنة، فإنه لم يمض رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها، وأخذ الجزيرة من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم،

(١) سورة النور، آية: ٥٥.

وصاحب مصر والإسكندرية، وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة^(١).

لقد أبلى المسلمون الأوائل بلاءً^(٢) حسناً، فقد أصابهم البلاء والأذى، وذلك بسبب تسلط المشركين عليهم وعلى النبي ﷺ، وقد كان المسلمون الأوائل جاهدين في الاستخفاء عن قريش، حيث يمارسون عباداتهم وشعائرتهم بعيدين عن أنظار الكفار في الشعاب والأماكن النائية خوفاً من أذاهم، فقد كانوا يتبعونهم ويرصدون لهم الرصد لكشفهم، والعيب عليهم والفتك بهم.

روى سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- أنه قال: "خرجت أنا وسعيد بن زيد وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود إلى شعب أبي دُب نتوضأ ونصلي ونحن مستخفون، فظهر علينا نفر من المشركين، وقد كانوا يرصدوننا فاتبعوا آثارنا، أبو سفيان بن حرب والأحنس بن شريق وغيرهما من المشركين، فعابوا علينا وأنكروا فعلنا حتى بطشوا بنا، فأخذت لحي جمل، فأضرب به رجلاً من المشركين، فأشجه شجة أوضحت، وانكسر المشركون، وقوي أصحابي، فطردناهم حتى خرجوا من الشعب فكنت أول من أهرق دمًا في الإسلام"^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٣٣٠.

(٢) لقد ارتفعت قيم العقيدة في صدور الرجال إلى درجة تفوق وتعلو، وتسمو فوق كل المعاني الاجتماعية التي درج عليها القوم، دخل حصين على النبي ﷺ كواسطة من قبل قريش ليحدث الرسول ﷺ في شأن الدعوة، وكان ولده عمران -رضي الله عنه- أحد تلاميذ مدرسة الأرقم، فما وقف لوالده، ولا أحس باحترام في نفسه لرجل كافر، قطعت العقيدة أواصر الود بينهما، ويعرض الرسول ﷺ الإسلام على حصين فيسلم، فيقوم إليه ولده عمران -رضي الله عنه- فيقبل رأسه ويديه ورجليه، ويكي النبي ﷺ من صنع عمران، وهكذا تعلو الصلة في الله فوق كل المعايير الاجتماعية والأسرية، السيرة الحلبية، علي برهان الدين الحلبي ٣١٨/١، التخطيط للدعوة الإسلامية وأهميته، عبد رب النبي علي أبو السعود ١٥١.

(٣) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمد حميد الله ١١٦/١.

ومن أكثر الرجال الذين تعرضوا لحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - نظراً لصحبته الخاصة له (١).

ولقد التزم المسلمون في العهد المكي بما أمرهم الله سبحانه به، وكفوا أيديهم عن مقابلة الأذى بمثله، واكتفوا عند حد الدعوة بالبيان والحجة والبرهان، وألزموا أنفسهم الصبر على ما نزل بهم من أنواع البلاء والفتنة، فقد كانت هذه المرحلة بمثابة الأساس لما بعدها من المراحل، لأنه تم فيها تربية النفس، حتى تخلص لله وحده (٢)، إهم أرخصوا الأهل، وضحوا بالعشيرة في سبيل العقيدة.

لقد كان لتلك التضحيات الهائلة، التي لم يسجل التاريخ في صفحاتها لها مثيلاً أعظم الآثار لنجاح الدعوة، إن الصحابة -رضوان الله عليهم- جادوا بكل ما يملكون من أجل هذه الدعوة، فلقد كان تشريع الجهاد في سبيل الله، والندب إليه قوة دافعة لهم إلى التضحية والجهاد والاستشهاد، لتكون كلمة الله هي العليا (٣).

لقد كان المسلمون بالأمس بمكة يعيشون حياة القهر والذل يبحثون عن مأوى لدعوتهم، ولعل الجهود الدعوية التي بذلها رسول الله ﷺ في دعوة القبائل والوفود، وطلبه إليهم الإيواء والنصرة، وأمره لأصحابه بالمهجرة إلى الحبشة، والتماسه النصره في رحلته إلى الطائف، كل ذلك وغيره مما واجهه النبي ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم- يؤكد حجم المعاناة التي عانوها في مكة وتلك الفترة التاريخية في الدعوة التي استطاع الرسول ﷺ أن يبني الرجال ذوي الهمم العالية الذين هانت عليهم الدنيا. بمن فيها في سبيل نصره دينهم، والدعوة إليه ولكن شاء الله أن يأتي اليوم الذي يُعزُّ فيه

(١) حنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان بن عبد الله السويكت ٧٥.

(٢) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبد الوهاب لطفى الديلمي ١/٥٩٧-٥٩٨.

(٣) انظر: أسباب نجاح الدعوة في العهد النبوي، عبد الله بن محمد آل موسى ٣٥٢-٣٥٤.

الإسلام والمسلمون، ويسرّ الله لهم المأوى في المدينة ومن يقوم على نصرتهم، وجاء اليوم الذي عزّ فيه المسلمون، ورفعوا رايات الجهاد، بعد أن كانوا يتلقون الضربات تلو الأخرى، وليس بوسعهم إلا الصبر والاحتساب، جاء اليوم الذي فتح الله سبحانه لرسوله ﷺ مكة التي طرده منها أهلها هو وأصحابه ليتلو هو وأصحابه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١)، ولم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب واليمن، وأخذ الجزية من الجوس.

وبذلك يتأكد لدينا أهمية وعظمة الإيواء والنصرة للدعوة إلى الله، بعد أن عاشت الدعوة الإسلامية حالة من الازدهار والانتشار في جنبات الأرض بعد أن أصبحت لها دولة تحميها وتناصرها، وتجاهد من يقف في طريق انتشارها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

(١) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٣.

المبحث الثالث: أثر الإيواء والنصرة على الدعوة إلى الله:

ما أخرج الدعوة إلى الله إلى الإيواء والنصرة في كل زمان ومكان، وحينما يتأمل الإنسان في تاريخ الدعوة الإسلامية في الفترة المكية والمدنية، يقف على حقيقة جليلة، وهي انتفاع الدعوة بالإيواء والنصرة في كل مراحلها ولاشك أن حماية الله ونصرته لنبيه محمد ﷺ هي الأساس الذي يكفل للدعوة النجاح، هذا بالإضافة إلى أسباب الحماية والمنعة والنصر التي يقيض الله لها من يقوم عليها، وقد تكفل الله سبحانه بنصر رسله -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم من المؤمنين، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾^(١)، ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢)، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾^(٣) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ^(٤).

أولاً: أثر المكانة الاجتماعية على الدعوة:

و شاء الله أن يجعل للدعوة من يعمل على حمايتها ونصرتها، ولما كنا الآن بصدد الحديث عن أثر الإيواء والنصرة على الدعوة في الفترة المكية، فإنه من المناسب أن نتحدث عن شرف نسب النبي ﷺ وأثره على الدعوة، فقد اختار الله سبحانه أنبياءه من أشرف الناس، وكذلك كان رسول الله ﷺ صفته من خلقه، فهو من أكرم العناصر، هذا لحكمة أرادها سبحانه وتعالى وذلك حفظاً لنسبهم من القدح، وصيانة لعرضهم من جرح، ولتكون النفوس لهم أطهر، والقلوب لهم أصفى، وفي ذلك سهولة، وهو خير الأنبياء وأفضلهم، قد اختاره

(١) سورة غافر، آية: ٥١.

(٢) سورة الصافات، آية: ١٧١-١٧٣.

الله من أرفع الأنساب، وأعلى المكانة في قومه، بل وفي الخلق كلهم، وقد كان ذلك من أقوى الأسباب في نجاح دعوته. يبين ذلك ما حصل للرسول ﷺ من بعض قومه من وقوفهم معه، وإن لم يكن بعضهم مؤمناً بما يدعو إليه في بادئ الأمر، وإسلام بعضهم من باب الحمية لرسول الله ﷺ ودفاعهم عنه، كما حصل من حمزة بن عبدالمطلب -رضي الله عنه- حيث إن رسول الله ﷺ كان من أرفع قومه نسباً، فهو لم يزل ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء، حتى انتهى إلى كبير مكة، وعظيم قريش، عبدالمطلب ابن هاشم، ثم إلى أبيه عبدالله أشرف الناس نسباً. عن العباس -رضي الله عنه- قال: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس: قال فصعد المنبر فقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله ﷺ فقال: أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق، فجعلني من خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني من خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني من خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً، فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً^(١)، وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك لا حمية لنفسه ونسبه في المقام الأول، حيث لم يكن بحاجة إلى بيان نسبه، وعلو مكانه فيهم، وإنما لما يعلم أن لذلك آثاراً سيئة على قبول الدعوة عند العرب، لأن الأنساب عندهم في قمة الفضائل، ومن هنا كان ردّ رسول الله ﷺ لبيان الحقيقة الأصلية، ولقطع الطريق على الذين يعملون ضد الدعوة الإسلامية، لما كان يدركه ﷺ من أثر لهذا العامل في نجاح الدعوة^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢١٠/١ رقم ١٧٨٨، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح

(٢) أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، عبدالله بن محمد آل موسى ٣٠٧.

لقد حمى الله تعالى رسوله ﷺ وجعله يأوى إلى ركن شديد من عراقه النسب، وشرف الموطن، في بيئة تقيم وزناً خاصاً لذلك، وتعدّه كل شيء في حياتها، وتفاخر به، وهذا في تصوري من أسس الحماية والمنعة التي أوجدها الله تعالى، لنبيه ﷺ لتكون بمثابة الدعامة الأساسية في نجاح دعوته، ولما يترتب عليها في مستقبل الدعوة الإسلامية.

وقد أفادت الدعوة الإسلامية، من تلك المكانة الاجتماعية لأسرة النبي ﷺ فأدت إلى نوع من الردع والتوازن في ذلك المجتمع القبلي، لأنه كما يقال: لا يفل الحديد إلا الحديد، فكذلك فإن لبني هاشم مكانة في قريش، والكل يقيم لهم وزناً اجتماعياً، فليس هناك مجال للاستخفاف، وبالطبع انعكس ذلك على الدعوة الإسلامية إيجاباً فكانت المكانة الاجتماعية، سياجاً منيعاً للدعوة، وإلا لكانت نهباً للسفهاء والصعاليك الذين يغريهم الضعف بالتطاول والتعدي.

ثانياً: أثر نشأة الرسول ﷺ على الدعوة:

كان لنشأة الرسول ﷺ أثر عظيم على الدعوة إلى الله، فقد نشأ يتيماً، قام على كفالته جده عبدالمطلب، وعمه أبوطالب، ولا شك أن تلك النشأة أكسبته صلابة وقوة، وزادت من اعتماده على الله، ثم على نفسه، فكان يساعد عمه في أمور العيش من خلال اختلافه إلى الشام للتجارة، وكان يرعى علياً - رضي الله عنه - منذ طفولته، فقد شب على الكفاح والمثابرة، وبرغم ما حباه الله من رعاية، وكفالة جده وعمه له، وإكْرَمهما له، إلا أن ذلك لم يجعله يركن إلى الكسل، والتدلل، الذي يفسد حياة الكثيرين مما لهم مثل هذه الظروف الاجتماعية، فلم يعيش حياة الترف، مثلما عاشها الآخرون، بل تحمل المسؤولية منذ البداية، فكان يعمل ويسافر، ويشارك الناس في حل مشكلاتهم،

مثلما حدث عند التنازع على نيل شرف حمل الحجر الأسود، والحل الذي قدمه ﷺ، وكان ذلك من الإعداد الإلهي له ﷺ، لتحمل المسؤولية الكبيرة في الدعوة إلى دينه.

ولقد كان يرعى الغنم لقومه في مكة، كغيره من الأنبياء قبله، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت، فقال: نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة"^(١)، لأن رعايته للغنم، تكسب القلب الرأفة والطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق، كان قد ذهب أولاً من الحدة الطبيعية، فيكون في أعدل الأحوال وهكذا يكون هذا العمل كملاً في حق الأنبياء، بخلاف غيرهم من البشر^(٢).

لقد امتن الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ بإيواء جده وعمه له وقبل ذلك إيواء الله تعالى له بحسن تدبيره سبحانه، وكذلك زواجه من خديجة -رضي الله عنها- التي واسته بمالها، وساندته وشدت من أزره، وقوت من عزيمته على مواجهة الصعاب وقد امتن الله عز وجل عليه بالنعم فقال سبحانه: ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ﴾^(٣).

ثالثاً: أثر نصرة أبي طالب على الدعوة:

ارتفعت حدة المواجهة بين الرسول ﷺ والمشركين، بعد أن أمر بأن يجهر بدعوته، لأن قريشاً خافت من انتشار الدعوة بين الناس مما يهدد الأوضاع السائدة في مكة آنذاك، ولطالما تعرض أبو لهب للنبي ﷺ بالأذى وتحريض الناس ضده، إلا أن هذا وغيره لم يمنع النبي ﷺ من الاستمرار في الدعوة، ونقلها إلى مجال أوسع

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب: رعى الغنم على قراريط ٦٥/٣ رقم ٢٢٦٢.

(٢) السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي برهان الحلبي الشافعي ٢٠٩/١.

(٣) سورة الضحى، آية: ٦-٨.

وأرحب، وكان طبيعياً أن تكون مكة المركز للدعوة، فهي الوطن الأم كما أن أهلها جميعاً يعرفون محمداً ﷺ ولكن عبادة الأصنام في مكة جعلت دعوة النبي ﷺ بمثابة اجتثاث للفكر المنحرف من جذوره^(١).

كما أن مكة مكان لالتقاء العرب القادمين للتجارة، ولتأدية الشعائر الدينية لذلك صعد النبي ﷺ إلى الصفا، ودعا قومه فاجتمعوا إليه فقال يا بني فلان، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبدمناف^(٢)، يا بني زهرة، ثم عد الأفخاذ من قريش ثم قال: "أرايتكم لو أخطرتم أن خيلاً تخرج بسفح الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: "تباً لك ما جمعنا إلا لهذا، ثم قام، فترلت سورة المسد" وكانت هناك مصادمات بين قريش والنبي ﷺ حاولوا من خلالها إثناء النبي ﷺ عن دعوته^(٣)، ثم حاولوا مراراً التوسط لدى أبي طالب، لصرف النبي ﷺ عن الدعوة عبر إغراءات مادية وأديبة^(٤)، بل حاولوا إسقاط الحماية عنه، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك نظراً لمكانة أبي طالب بين قومه، ومناصرتة للنبي ﷺ ولاشك أن تلك المناصرة أعطت النبي ﷺ مساحة اجتماعية ليتحرك فيها، بالدعوة إلى الله، والصلاة في المسجد الحرام، ومحاوله استقطاب بعض العناصر التي يتوسم فيها رسول الله قبول الدعوة.

(١) تاريخ الدعوة في عصر النبوة، د. محمود رزق محمود ٣٢.

(٢) أنساب الأشراف، البلاذري، ١/١١٩، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٢/٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ ٢-١ المسد

٧٣٧/٨ رقم ٤٩٧٢، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وأُنذِر

عشيرتك الأقربين﴾ ٢١٤ الشعراء ١/١٩٣-١٩٤ رقم ٢٠٨.

(٤) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٢/٦٠.

رابعاً: أثر إيواء المهاجرين إلى الحبشة على الدعوة:

بعد أن اشتد الأذى على المسلمين بمكة، وقيام الكفار بتعذيب المستضعفين من المسلمين، وإلحاق الأذى الشديد بهم، أمر النبي ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة حيث جوار النجاشي الذي لا يظلم، وأن الحبشة بيئة ملائمة للدعوة، وأصلح من مكة.

وقد تأمر المشركون على استعادة المهاجرين إلى الحبشة، لإعادتهم إلى مكة، للفتك بهم، ولكن الله قيض النجاشي للمسلمين ليمسك بهم وبوجودهم في بلاده ويجعله يتعاطف معهم، ويستشعر خطورة موقفهم وإيذاء المشركين لهم فأكرم وفادتهم، وجعلهم يمارسون شعائر الإسلام بحرية وأمان واستقرار حتى طال ببعضهم المقام في الحبشة، فلم يرجع جعفر بن أبي طالب إلا عند فتح خيبر^(١)، ولا شك أن مكث الصحابة من المهاجرين إلى الحبشة هناك، كان له نتائج طيبة على الدعوة الإسلامية هناك، فأثمرت الدعوة في الحبشة ثماراً طيبة، فأسلم بعض الناس على أيدي الصحابة -رضوان الله عليهم- حتى إن النجاشي نفسه أسلم فعن أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: "نعى النبي ﷺ إلى أصحابه النجاشي، ثم تقدم فصفوا خلفه فكبر أربعاً"^(٢).

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال قال النبي ﷺ: "قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلّم فصلوا عليه"^(٣)، وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال الرسول ﷺ "إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٤١/٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: الصفوف على الجنائز ١٠٩/٢ رقم ١٣١٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: الصفوف على الجنائز ١٠٩/٢ رقم ١٣٢٠.

عليه^(١)، وهذا النجاشي الذي أسلم، ليس بالنجاشي الذي كتب إليه الرسول ﷺ عندما كتب إلى عامة الملوك والرؤساء^(٢).

خامساً: أثر إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما - على الدعوة:

حينما نتحدث عن أثر الحماية والمنعة والإيواء على الدعوة، فإننا نقر أن ذلك كان بقدر الله وتدبيره، لأن الله غالب على أمره، فقد اشتعلت نار العداوة من جانب قريش ضد الرسول ﷺ وأصحابه وقد وقعت اعتداءات متفرقة عليه ﷺ فضلاً عما لحق بأصحابه - رضي الله عنهم - من الأذى والتعذيب، والسب والشتيم، والتنافس فيما بين المشركين، لأجل المبالغة في الإيذاء، وعندما ارتفعت درجة العداء للدعوة، وزادت نبرة التحدي من قبل المشركين في هذه الأثناء شرح الله صدر حمزة بن عبدالمطلب، وعمر بن الخطاب الذي أسلم بعده بقليل لينافحا عن الإسلام، ويشكلا سياجاً منيعاً أمام تعدي المشركين لما عرف عنهما من قوة وشجاعة وإقدام.

وعندما اعتدى أبو جهل على النبي ﷺ وعلم بذلك حمزة، سارع بالثار لابن أخيه، وقام بضرب أبي جهل وشجحه شجة منكرة وأن هذه القوة التي كان عليها حمزة - رضي الله عنه - جعلت قريشاً تغير من لغة التعامل مع النبي ﷺ وتحاوره طمعاً منها في استقطابه . وكذلك إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جعل المشركين ينكمشون نسبياً عما قبل، فكما وصف عبدالله بن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: في التكبير على الجنازة ٦٥٧/٢ رقم ٩٥١.

(٢) انظر صحيح مسلم، في كتاب الجهاد والسير، باب: كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعواهم إلى الله عز وجل ١٣٩٨/٣ رقم ١٧٧٤، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله

مسعود -رضي الله عنه- إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بأنه كان فتحاً للإسلام، وهجرته كانت نصراً.

كما أن نصرة بعض المشركين وانتصافهم من قومهم وملاصقتهم في المقاطعة^(١) والمحاصرة في شعب بني هاشم التي استمرت ثلاث سنوات، هذا الأمر كان له أثره الطيب على الدعوة، حيث خرجت من دائرة الحصار إلى أفق أرحب، ليتم عرضها على القبائل، طمعاً في النصرة والتأييد وبعد أن خرج النبي ﷺ إلى الطائف، التماساً للنصرة والإيواء للدعوة بعيداً عن مكة التي جفاها أهلها، واستوحش فيها، بيد أنه وجد الخذلان والنكران، وكان ما كان في الطائف من تجهم سادة ثقيف وإعراضهم، وإغرائهم لعبيدهم وسفهاءهم بقذفه بالحجارة، ثم كان في رحلة العودة من إسلام عداس الغلام النصراني في بستان ابني ربيعة، ومن استماع نفر من الجن لتلاوة القرآن، ورجوعهم إلى قومهم لإنذارهم، ودعوتهم، فلا شك أن هذه مكاسب للدعوة، كما أن دخول النبي ﷺ في جوار المطعم بن عدي إلى مكة، ومباشرته للدعوة، وخروجه لملاقاة القبائل الوافدة، وعرض الإسلام عليهم، حتى وإن كان لم يحقق الهدف المنشود من مناصرة تلك القبائل للدعوة، إلا أن ذلك في حد ذاته، يعد مكسباً للدعوة عن طريق شدة انتباه الناس للإسلام، وتناقلهم لأخبار هذا النبي، الذي يدعو إلى الله، وقد كان ذلك في كثير من الأحيان عاملاً مساعداً لقبول الدعوة بعد ذلك، بأن هيأ أذهان البعض للتفكير في الإسلام وكانت دعوة القبائل الوافدة إلى مكة خروجاً بالدعوة عن نطاق مكة، إلى البلدان التي وفدت منها تلك القبائل، ويعتبر من بشائر النصر للدعوة الإسلامية.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه ٣٧٤-٣٧٧.

أما عن الإسراء والمعراج، فقد كان نصراً إلهياً آخر للدعوة، حيث كُرم النبي ﷺ وتم مسح الآلام النفسية التي كانت تعتصره نتيجة إعراض قومه، وجحودهم وتجهمهم. فقد اطمأن قلب النبي ﷺ، وامتلاً ثقة بنصر الله له ولدينه ولاشك أن الإسراء والمعراج، حمل دلالات دعوية أنبأت عن مستقبل مشرق للدعوة، حيث الخروج عن الإقليمية في مكة، إلى آفاق أرحب ليس في داخل الجزيرة العربية فحسب، بل خارج نطاق الجزيرة العربية، حيث الفتح الإسلامي الذي امتد بعد ذلك والله الحمد والمنة.

سادساً: أثر بيعتي العقبة الأولى والثانية على الدعوة:

هياً الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ أسباب النصر حينما التقى برهط من الخزرج، إبان عرض نفسه على القبائل، فدعا هذا الرهط إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، ولطالما سمع هؤلاء عن النبي ﷺ حيث كان اليهود يقولون: إن نبياً قد أطل زمانه، فاستبشر الرهط من الخزرج النبي ﷺ فسارعوا إلى إجابة الدعوة، واعتناق الإسلام، حتى لا يسبقهم إلى ذلك أحد من قومهم، ووعدوه بعرض الإسلام على قومهم وقد قام بدعوة قومهم وفشا أمر الإسلام، ولما دخل الموسم الثاني للحج جاء اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، والتقوا النبي ﷺ وبايعوه، فسُر النبي ﷺ بذلك، وأرسل معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير -رضي الله عنه-، ليعلمهم أمور دينهم، ونزل مصعب على أسعد بن زرارة، فأواه أسعد إلى بيته، ولاشك أن هذا الأمر عظيم، حيث كان أسعد -رضي الله عنه-، بمثابة العين التي يُبصر بها مصعب -رضي الله عنه- لأن أسعد كان أعلم بقومه وبساداتهم ووجهاتهم وذوي النفوذ والتأثير.

وما أحوج الداعية أن يتحسس ذلك، حتى يكون أدعى إلى التركيز في الدعوة، ويتلافى الاصطدام مع أصحاب النفوذ، وحتى يُترل الناس منازلهم، ويقدرهم، ويتطلف معهم.

هذا ما حدث مع مصعب بن عمير -رضي الله عنه- حينما وضع له أسعد -رضي الله عنه- حقيقة الأرض وذلك حينما قدم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فأخذ أسيد بن حضير حربته -وذلك بعدما طلب إليه سعد بن معاذ أن يذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا ديارهم لزجرهما -فلما رأى أسعد بن زرارة، أسيد بن حضير قادماً، قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، حيث أقبل أسيد متجهماً وشتمه، فما كان من مصعب إلا أن تلطف في دعوته بالحسنى حتى شرح الله صدر أسيد للإسلام، ثم قال: إن ورائي رجلاً، إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرشده إليكما الآن -سعد بن معاذ-، ثم احتال أسيد بن حضير على سعد بن معاذ، عند رجوع إليه، وسأله سعد: ماذا فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين فما وجدت بهما بأساً، وقد هئيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، ثم قال محتالاً على سعد لدفعه إليهما: وقد حدثت أن بني حارثة، خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه -وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك- ليخفروك، فقام سعد مغضباً للذي ذكر له فأخذ حربته وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما مشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة، مارمت هذا مني تغشانا في دارنا بما نكره.

وهنا يجدر بنا أن نؤكد على أهمية النصرة للدعوة سواء بالنسبة لتزول مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة، وهو من أهل يثرب وله مكانة اجتماعية

فأتاح ذلك الفرصة أمام مصعب بن عمير أن يعرض دعوته وهو مطمئن هادئ النفس، وينتقل في يثرب لعرض الإسلام، وبالنسبة أيضاً لقراة أسعد بن زرارة لسعد بن معاذ، فأدى ذلك امتناع مصعب بن عمير بامتناع أسعد بن زرارة، بمعنى أن مصعب بن عمير أصبح في منعة وحماية لمنعة أسعد بن زرارة، وقد كان أسعد قد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فدعاه مصعب وتلطف في دعوته، فشرح الله صدر سعد بن معاذ للإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ودخل الإسلام، ثم ذهب إلى قومه وذكرهم بمكانته منهم، فهو السيد والأفضل فقال لهم: فإن كلام رجالكم ونساءكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، إلا رجل واحد تأخر إسلامه إلى يوم أحد. ومن خلال تلك الأحداث تظهر أهمية الإيواء والنصرة بالنسبة للدعوة فقد أثمرت عملية إيواء ونصرة مصعب بن عمير، أن أسلم سيدا القوم، فتبعهما القوم وأسلموا جميعاً إلا واحداً، ولاشك أن ذلك مكسب عظيم للدعوة الإسلامية، فضلاً عن كون من أسلموا أنصاراً للدعوة ينصرونها ويؤيدونها، بكل ما يملكونه وقد ظهر ذلك في العام الثاني في بيعة العقبة الثانية، حيث أجمع وفد المسلمين من الأوس والخزرج على حماية ونصرة النبي ﷺ بدلاً من تركه نهياً لأهل مكة، لا يجد من ينصره، فتواعد الوفد الميمون سراً مع النبي ﷺ عند العقبة، حسبما تمت الإشارة إليه سابقاً، حيث بايعهم الرسول ﷺ قائلاً: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم".

ومن خلال ما دار بين النبي ﷺ والأنصار تم التأكيد على حماية الأنصار للنبي ﷺ والمسلمين، واتفقوا على شروط البيعة، لقد هيا الله تعالى الأنصار

لقبول الإسلام، فالأوس والخزرج قبيلتان عربيتان عظيمتان في يثرب، وقد هداهما الله لقبول الإسلام.

وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل، هي من فضل الله وتيسيره، فقد جبل الله كلاً من الأوس والخزرج على خلال طيبة وشيم حميدة، والخصال الطيبة التي كانت في العرب من الرحمة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ، حين وفد من اليمن بقوله: "أتاكم أهل اليمن أضعف قلوباً وأرقّ أفئدة الفقه يمان، والحكمة يمانية" ^(١)، وهما ترجعان في أصلهما إلى اليمن، نزع أجدادهم في الزمن القديم، يقول القرآن مادحاً لهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ^(٢).

ومنها: أنها أنهكتهم الحروب الداخلية، وآخرها يوم بعث قبل الهجرة بخمس سنوات في أصح الروايات ^(٣)، وقد اكتتوا بنارها، وذاقوا مرارتها، ونشأت فيهم رغبة في اجتماع الكلمة وتفادي الحروب، وذلك ما عبروا عنه بقولهم: "إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمع الله بك، فإن يجمعهم الله بك فلا رجل أعز منك".

كما كان أهل المدينة من الأوس والخزرج، أصحاب نخوة، وإباء وفروسية وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، وكان الأوس والخزرج من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعرين وأهل اليمن ١٤٣/٥ رقم ٤٣٩٠.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٨٥/٧.

قحطان، والمهاجرون، ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد.

فكانت لكل ذلك مدينة يثرب، أصلح مكان لهجرة الرسول الله ﷺ وأصحابه، واتخاذهم لها داراً وقراراً، حتى يقوى الإسلام، ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة، ثم يفتح العالم^(١).

سابعاً: أثر الهجرة إلى المدينة على الدعوة:

سبقت الهجرة على مدى ثلاثة عشر عاماً في مكة بتمحيص واختبار وابتلاء للمؤمنين حيث واجه حملة الدعوة صنوف العذاب، وكان زاد المؤمنين آنذاك الصبر والتحمل، وقد كانت هذه المرحلة بمثابة الأساس لما بعدها من المراحل، لأنه تم فيها تربية النفس حتى تترفع عن كل الأخلاق والقيم والموازين الجاهلية، وتلت هذه المرحلة -مراحل الدعوة التي استغرقت الفترة التاريخية في مكة-، مرحلة الهجرة في الوقت الذي علم الله سبحانه أن الجماعة المسلمة، قد استكملت أدوار المرحلة الأولى من الدعوة، لتدخل المرحلة الثانية، حيث أصبح المسلمون مؤهلين لمواجهة المخاطر المتوقعة، وتوفرت الأرض التي يأمن فيها المسلمون على دينهم^(٢).

لقد أثرت الهجرة في الدعوة تأثيراً عظيماً، فكانت فتحاً كبيراً في تاريخ الدعوة يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي

(١) انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسيني الندوي ١٥٤-١٥٨، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، د. عبدالباسط بدر ١٣٠/١.

(٢) انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، د. عبد الوهاب الديلمي ٥٩٨/١-٥٩٩.

أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ ۖ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنِهِمْ إِنَّهُ غَزِيرٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾^(١)

جاءت الهجرة بعد ثلاثة عشر عاماً في مكة حفلت بالدعوة إلى الله والصبر
على الأذى من قبل الرسول الله ﷺ وأصحابه، بيد أن الهجرة أثمرت -فيما
أثمرت- وحدة القلوب بين المهاجرين، الذين انتقلوا بإيمانهم ورسالتهم من مكة
إلى المدينة، وبين الأنصار، وهم المؤمنون من سكان المدينة الذين آووا ونصروا
أولئك المكيين المهاجرين، عندما وصلوا إليهم أثمرت تماسكهم في ترابطهم،
أثمرت لقاءهم في طريق واحد وعزمهم على الوصول إلى الهدف الواحد، أثمرت
رفع ما كان بينهم من روح العصبية القبلية، والتفاخر بالآباء، واندفخوا في
الاتجاه الذي رسمته الدعوة الجديدة، وهي الدعوة إلى الإسلام، وأصبحوا بعد
إيمانهم مؤمنين بالله فقط، لا مكيين ولا مدنيين، وضخوا في سبيل الله وحده
وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الحق، والإيمان به.

كان للهجرة هذا الأثر من ترابط القلوب، ووحدة الصف، لأنها لم تكن
انتقالاً ولا تغييراً لمكان، بل كانت عنواناً على عزم وتصميم هو عزم المؤمن،
لقد آوى المسلمون في المدينة إخوانهم المهاجرين من مكة، آووههم ونصروهم،
بل دعوهم إلى القدوم حتى تكون لهم جميعاً عزة بعد ذل، وقوة بعد ضعف، إن
الهجرة هي نقطة تحول في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، وفي تاريخ المؤمنين به وقد
كان لهم النصر، وكان لهم التأييد من الله، لأنهم أخلصوا فيما آمنوا به، أنها

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٢-٦٤.

أثمرت القوة، وأثمرت الوحدة والنصر^(١)، لقد كانت مرحلة الهجرة إعداداً لمرحلة تالية، وهي الإذن بالقتال بعد أن أصبح المسلمون قوة لا يستهان بها في ميزان القوى آنذاك.

قال ابن القيم -رحمه الله-: فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره، وعباده المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله، وكتيبته من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشتموا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم^(٢) فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣)، ولم يكن الجهاد في تلك المرحلة فرضاً، ولكن إذن الله للمؤمنين يدل على الإباحة حسب استعداد المسلمين، وقد اهتم الرسول ﷺ في هذه المرحلة بالبناء المتكامل للمسلمين والمؤاخاة والمعاهدات. ثم كانت مرحلة فرض القتال لمن يقاتلهم دون من لم يقاتلهم، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى:

(١) انظر: الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي ٣٩٦-٣٩٨.

(٢) زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط ٦٩/٣.

(٣) سورة الحج، آية: ٣٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾^(١).

ثم كانت مرحلة فرض القتال للمشركين كافة، وكان ذلك في آخر
مراحل الجهاد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، قال تعالى:
﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ^٢ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ^٣ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢).

والدعوة لم تدخل مرحلتها الأخيرة، إلا بعد أن مكَّن الله سبحانه للدعاة
في الأرض، وأصبح لديهم القدرة على مواجهة الباطل وأهله في كل مكان^(٣).
لقد تحقق للمسلمين بالهجرة ما كان يبحث عنه ﷺ من المأوى^(٤) والدار
للدعوة والدعاة، بعد جهد مضن، وصبر وكفاح لتضم المسلمين، وليمارسوا
فيها عباداتهم في أمان وحرية، فكان في ذلك أعظم الآثار في نجاح الدعوة،
ورفع راية الجهاد لنشر هذه الدعوة، حتى تبلغ الآفاق، لقد كانت الهجرة إلى

(١) السورة السابقة، آية: ١٩٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ٥.

(٣) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبد الوهاب الدليمي ٦٠٢/١.

(٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في
منازلهم عكاظ ومجنة وفي المواسم يقول: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة،
فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، فأويناه وصدقناه"، الدعوة إلى الله في ميادينها الثلاثة الكبرى،
محمد بن حامد الغامدي ٥٨٦.

المدينة فتحاً عظيماً للمسلمين ونصراً مؤزراً للدعوة^(١) إن الغاية من الجهاد في الإسلام، نشر الدعوة الإسلامية، فمن أهداف الجهاد حماية الدعوة الإسلامية، ودفع الأذى والفتنة عن المؤمنين، ومن أهداف الجهاد وأغراضه حماية المستضعفين من المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ^ط وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ^ع إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٢)﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبي الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة، توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب، لمن خالف القرآن، وكذب به وعانده^(٣).

لقد كان للهجرة قيمة خاصة في تاريخ الدعوة، حيث كانت حداً فاصلاً بين عهد كان فيه الإسلام دعوة دينية يحميها نفر قليلون مستضعفون، وبين عهد أصبح فيه الإسلام دولة قوية مرهوبة، ففي المدينة أصبح الإسلام ديناً

(١) أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، عبدالله بن محمد آل موسى ٣٢٥.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣٢/٤.

ودولة معاً فبدأت قواعد الدولة الإسلامية بالرسوخ، وأخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقوم عليها الدولة وسيبرز في التنزيل بعد ذلك ناحيتان: ناحية الجهاد لتثبيت الإسلام، وإنشاء الدولة الجديدة، وناحية التشريع لإدارة هذه الدولة.

ثامناً: أثر جهاد المسلمين على الدعوة:

أبلى المسلمون بلاءاً حسناً في نشر الدعوة، وذلك من خلال مشاركتهم في الغزوات، ونود أن نذكر هنا شاهداً على ذلك. ففي غزوة بدر، من السنة الثانية من الهجرة، حيث انتصر المسلمون في تلك الغزوة وكانت هذه الغزوة نصراً حاسماً للمسلمين، ودلت على أن الإسلام، كان قد أصبح قوة عسكرية عظيمة^(١).

فقد آن للرسول ﷺ أن يظهر قوة المسلمين، بعد أن أذن له بالقتال وبعد أن بلغ المسلمون من المكانة حداً، يسمح لهم بالدفاع، وحماية الدعوة والديار، بل ونشر الدعوة وحماية المنتسبين إليها، فقد استعد المسلمون نفسياً ومراناً، ومعرفة بفنون الرمي والركوب والكر والفر وكثر عددهم، وقويت شوكتهم، ومضت فترة طويلة، كان يظن مشركو قريش أن المسلمين مستضعفون، يقيمون في حماية بلدة نائية، وحولهم الأعداء من كل جانب من اليهود والمنافقين، ومن يتحالف مع قريش من المشركين إذاً لابد أنه يظهر رسول الله ﷺ قوة المسلمين، ويعلن للملأ أنهم أصبحوا أمة لها كيانها وهيبتها، فقد قضى الله - سبحانه - أن الحق لابد أن ينتصر، ولو طال عليه الأمد، أو ضعف أهله، وقوي أعداؤه، وأن الباطل لابد أن ينهزم، وإن بدا في يوم من الأيام منتصراً أو

(١) انظر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، د. عمر فروخ ٦١-٦٣.

عاليًا، وهكذا كان الحال في معركة بدر، التي نصر الله فيها المسلمين، وأخزى أعداءهم، وظهر فيها تثبيت الله للمؤمنين، حيث كانت صلة الرسول ﷺ دائمة بربه، وكان على ثقة من ربه، بأنه ناصره، وخاذل أعدائه وبرز في هذه الغزوة حب الصحابة -رضوان الله عليهم- للنبي ﷺ فلما دنا المشركون قال رسول الله ﷺ لأصحابه "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض فقال عمير بن الحمام: يا رسول الله قال: نعم، قال: بخ بخ، قال رسول الله ﷺ: وما يحملك على قول بخ بخ، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات فجعل يأكل منها، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم، فما زال يقاتل حتى قتل، وقال عبدالرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكائهما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله، أو أموت دونه، وقال لي الآخر: مثل قول صاحبه، قال فما سرني أني بين رجلين مكائهما، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين، فضرباه، حتى قتلاه، وقد تركاه، وبه رمق، فابتدره عبدالله بن مسعود فحشم على صدره، يبغي الإجهاز عليه، وفتح أبو جهل عينيه، وسأل لمن الدائرة؟ فقال عبدالله: لله ولرسوله، ثم قال عبدالله: هل أخزأك الله يا عدو الله؟ قال: وبما أخزائي هل أعمد من رجل قتله قومه؟ فقال أبو جهل: ألسنت رويعنا بمكة، قال: أنا عبدالله بن مسعود، وهوى عليه بسيفه حتى حمى، وذهب يخبر رسول الله ﷺ فسر بذلك وجاء إلى مكة يشهده بنفسه، وقد حز عبدالله رأسه.

إن هذين الشاين قد دمغهما حبهما لله ولرسوله ﷺ وإقدامهما ورغبتهما في إحدى الحسينين، أن يبحثا عن رأس الفتنة والشر، -أبي جهل- ليربحا المسلمين منه، وكل واحد منهما يريد أن يكون ذلك العمل النبيل على يديه، ولم يهابا الموت، ولم يرهبا الحماية القوية التي كان أبو جهل وسطها.

لقد كان لمعركة بدر أثر عظيم في إعزاز دين الله، وتقوية نبيه ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم-، فقد عادوا بالعز المكين معهم من بدر، أما المسلمون فقد أقبلوا على ربهم يشكرونه على ما أنعم به عليهم، وجلسوا يجتثرون حلاوة النصر والتمكين، ويرون أثره على وجوههم وجيرانهم ومن حولهم، إذ تحولت النظرة إليهم من الضعف إلى القوة، ومن المجاملة إلى الهيبة^(١). إن المسلمين كانوا يتسابقون إلى ساحات الجهاد، لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه ففي كل معركة بين الإسلام والشرك، يتنافس المسلمون في الشهادة والفوز بالجنة وهدفهم من ذلك تمكين الدعوة الإسلامية من الانتشار، وإزاحة العقبات من طريقها.

لقد قدم المسلمون الشهداء الأبرار في الغزوات، لنصرة دين الله وإعرازه ولا نستطيع أن نحصرهم، ولكن حسبنا أن نشير إلى بعض البارزين منهم والذين كان لهم دور كبير في الدعوة إلى الله، وفي نصرة دين الله، مثل: مصعب بن عمير واستشهاده في سبيل الله، وحمزة بن عبدالمطلب، وعمرو بن الجموح وأبي خيثمة وحنظلة بن أبي عامر، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن الربيع وهو سيد من سادات الأنصار، أرسل الرسول ﷺ يسأل عن خبره في أحد فوجده بين القتلى وبه رمق، فقليل له: إن رسول الله ﷺ يسأل عنك، أفي الأحياء أم في

(١) انظر: النهج الحمدي، عبدالعزيز المسند ١٢٢-١٣٠.

الأموات، فقال: أنا في الأموات، فأبلغوا رسول الله ﷺ سلامي، وقولوا له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك عنا الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغوا قومكم عني السلام، وقولوا لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة، فوالله إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، ثم لم يبرح حتى مات.

إن هؤلاء العظماء حتى في اللحظات الأخيرة في الدنيا، التي يغيب فيها الإنسان عن وعيه لم يغب عن وعيهم حب رسول الله ﷺ ولا نصرته ولا إعزاز دينه.

إن الدعوة الإسلامية التي قام بها محمد ﷺ وصحبه ما بلغت من الانتشار والثبات بالشيء اليسير، ولا بالعمل الهين، وإنما بلغت ذلك بعد أن دفع لها الثمن الغالي كفاحاً ودماءً، واحتمالاً في سبيل الله، بهذه الروح، وبهذا الفداء والاستبسال بلغ الإسلام ما بلغ^(١).

وقد قرر فتح مكة مصير جزيرة العرب، والعرب جميعاً، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله أفواجا، وأزالت هزيمة قريش كل أمل العرب في مقاومة منظمة، فقد كانت مكة مركز المعارضة، وكان دور القبائل الأخرى مساندة المقاومة القرشية وتعريضها، وبانتهاء هذه المقاومة أصبح من اليسير عزل كل القبائل التي ما زالت تحلم بمقاومة فعلية^(٢).

(١) المرجع السابق ١٥٠.

(٢) نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ، "دراسة في وثائق العهد النبوي"، د. عون الشريف قاسم ١١٩.

وقد مكن الله لنبيه ﷺ ودخل مكة فاتحاً منتصراً بعد أن طُرد منها، ولم يدخل دخول الفاتحين المتغطرسين بل خاشعاً شاكراً لأنعمه، يقرأ سورة الفتح، ويرجع في قراءته وهو على راحلته، وقد أمر الرسول ﷺ بتحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام منها، وشارك بذلك بيده، فكان يهوي بقوسه إليها فتساقط وهو يقرأ ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾^(١).

وهكذا تم تطهير البيت العتيق من مظاهر الوثنية وأوزار الجاهلية، ليعود كما أراد الله تعالى، وكما قصد بينائه إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-، مكاناً لعبادة الله وتوحيده^(٢). وبهذا يكون قد تبين أثر الإيواء والنصرة في العهد المدني، حيث احتضن الأنصار -رضي الله عنهم- النبي ﷺ والمسلمين من مكة والدعوة الإسلامية، وكانت المدينة هي المأوى الذي يبحث عنه النبي ﷺ لدعوته، وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج نعم الأنصار للدعوة الإسلامية ولا شك أن الغزوات والفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة الإسلامية كل ذلك كان الثمرة الطيبة للإيواء والنصرة من قبل الأنصار، وكذلك نصرة المهاجرين الذين تركوا وطنهم وأموالهم وأهلهم وديارهم وتحملوا صنوف العذاب في مكة وألم الفراق، وفروا بدينهم، ولم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ حيث كان أحب إليهم من أنفسهم وأهلهم وأوطانهم، وجادوا بأنفسهم في سبيل الله، وقبل ذلك وبعده نصر الله وتأييده وإيواؤه للنبي ﷺ والمؤمنين، حتماً إن الدعوة الإسلامية بحاجة إلى الإيواء والنصرة في كل زمان ومكان وأن ما فعله سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم-، من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم في نصرة الدين، منهج ينبغي

(١) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٢) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة، الجهاد ضد المشركين، د. أكرم ضياء العمري ١٨١-١٨٢.

أن يحتذى ويتبع، والله تعالى يقول ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

نموذج تطبيقي معاصر لنصرة الدعوة:

مما لا شك فيه أن الدعوة إلى الله بحاجة إلى المساندة والنصر والتأييد فلا بد من سلطة تتحمل عبء الدعوة إلى الله لتبليغها إلى آفاق الأرض، وإن إقامة هذه السلطة ضرورة من ضرورات قيام منهج الله، فمنهج الله في الأرض لا يقوم بمجرد الوعظ والإرشاد والبيان فقط، وإن كان هذا يمثل شطراً من الدعوة، أما الشطر الباقي فهو قيام سلطة، وقيادة تحمل منهج الله في الأرض وتقوم به، وتبلغه للناس بما ترسمه من الوسائل والخطط، ثم تحيط كل ذلك بسياس وحماية ورعاية، على هذا قامت الجماعة الأولى في المدينة، واستمرت به الدعوة الإسلامية، بعد ذلك في العصور الإسلامية الزاهرة^(٢).

وشاء الله أن يجدد أمر دينه برجل من ذوي الغيرة على الإسلام إنه الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -، الذي قام بدعوته الإصلاحية في شبه الجزيرة العربية، وما كان لهذه الدعوة أن تقوم، ويشتد عودها إلا بمساندة ومؤازرة، فقيض الله لهذه الدعوة الإصلاحية من يعمل على نصرتها فقامت أسرة آل سعود - منذ بداية الدولة السعودية الأولى وعهد الإمام محمد بن سعود - رحمه الله - الذي اتفق مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - على نشر العقيدة الصحيحة، ومساندة الدعوة ومناصرتها. فقد رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن الإصلاح الديني لا ينفصل عن الإصلاح السياسي،

(١) سورة محمد، آية: ٧.

(٢) الدعوة إلى الله "الرسالة، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ٨٠.

وأن الناحية السياسية ستستفيد من الناحية الدينية، حيث أدرك الشيخ أن طبيعة البلاد المترامية الأطراف تحتاج إلى حماية للدعوة ومساندتها، ذلك أن قوى الشر في كل زمان ومكان تتربص بالدعوة، وتعمل على وقف مسيرتها، بل والقضاء عليها، وقد تأسى الشيخ -رحمه الله- بالنبي ﷺ، حيث كان النبي ﷺ يلتمس الإيواء والنصرة لدعوته في مكة والحبشة والطائف، حتى هيا الله وطناً للدعوة في المدينة وأنصاراً من أهل المدينة، وهكذا تم الاتفاق بين الإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود -رحمهما الله- على مناصرة الدعوة.

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلبه النصر لها:

تزداد الحاجة إلى الإيواء والنصرة في كل زمان ومكان، خاصة إذا كان الأعداء يحاولون القضاء عليها، من خلال محاربة الدعاة إلى الله، وملاحقتهم والكيد لهم، وتعقبهم والتآمر عليهم، ولكن شاء الله -عز وجل- أن يقيض للدعوة من يزود عن حياضها ويعمل على حمايتها ومناصرتها، ويدعم دعاة ما دياً ومعنوياً، ليتمكنوا من إبلاغ الدعوة إلى الناس صحيحة خالصة كما أرادها الله -عز وجل-.

وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوة إصلاحية قيض الله لها من يقوم على حمايتها والدفاع عنها ونصرتها، إنه الإمام محمد بن سعود، ويحسن بنا أن نعطي لمحة، وتعريفاً موجزاً عن الإمام محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود -رحمهما الله-

أولاً: الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-:

إن أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تدعى آل مشرف، وتنمي إلى بني تميم، وكان لبني تميم دور قيادي في حاضرة نجد، ذلك أن أمراء مدن عديدة،

من بينهم آل معمر في العيينة، كانوا من هذه القبيلة، على أن شهرة أسرة الشيخ محمد، كانت في الناحية العلمية،

والملاحظ أنه قد بدأ يبرز في هذه الأسرة علماء أجلاء منذ القرن السادس عشر^(١) وكان جد الشيخ، وهو سليمان بن علي، مرجع الإفتاء الديني في نجد وقاضي بلدة العيينة، ثم خلفه ابنه عبدالوهاب في قضاء البلدة المذكورة، وهكذا ولد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، في أسرة علمية، وكان مولده في بلدة العيينة سنة ١٧٠٣م، وكان لصفاته الذاتية، ولحيطة الأسري أثر كبير في تحصيله العلمي، وسافر الشيخ إلى الحجاز، ودرس في المدينة المنورة، وكان لأستاذه الشيخ محمد حياة السندي، دور في مستقبل تفكيره، إذ كان ذلك الشيخ من أشد المحاربين للبدع في الدين والتعصب للمذاهب^(٢).

وحين عاد الشيخ محمد إلى بلده، أكب على قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - خاصة في مجال العقيدة، وبدأ يظهر معارضته لبعض ما كان يجري حوله ثم سافر إلى الأحساء والبصرة لمواصلة دراسته، وبعد إقامة طويلة، عاد إلى نجد، حيث بدأ دعوته فيها، وكأية دعوة جديدة على المجتمع، كانت تعاني من قلة الأنصار، وكثرة الأعداء المعارضين، وكان من بين هؤلاء الذين اقتنعوا بصحة ما نادى به الشيخ محمد بن عبدالوهاب، أمير العيينة - عثمان ابن معمر -، فانتقل الشيخ إلى بلده، عائداً إلى مسقط رأسه، وأبدى ذلك الأمير استعداده للتعاون معه في تطبيق أفكاره، وهنا بدأ الشيخ بتنفيذ ما كان ينادي به، وقضى بمساعدة عثمان وبقية أنصاره، في إقليم العارض، على كل الأمور التي كان يرى فيها خطراً على عقائد جهلة الناس^(٣).

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر ١٩٤/٢.

(٢) روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات الإسلام، حسين بن غنام ٢٥/١.

(٣) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر ٢٠/١.

وكان واضحاً منذ البداية أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - يرى أن الإصلاح الديني لا ينفصل عن الإصلاح السياسي، وأن الناحية السياسية ستستفيد من الناحية الدينية^(١) وكان يعرف كل المعرفة أنه ليس من السهل نشر الدعوة في البلاد القاصية والدانية في مدة قصيرة، إلا بحماية أمير ذي قوة ونفوذ، لأنه لا يخفى على عاقل أثر القوة المادية، وأهميتها العظيمة في نشر الدعوات والأفكار، بالإضافة إلى القوة المعنوية والحجج والبراهين، فإن أي دعوة إذا لم تكن لديها من القوة ما يحميها ويدود عنها، سرعان ما تتكالب عليها قوى الشر والطغيان، حتى تستأصل حضراءها، وتظهر هذه الأهمية من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ^ط وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ^ع إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^ز﴾^(٢)، وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِّنْ لَّدُنكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا^ا﴾^(٣)، من هذا المنطلق عرض الشيخ - رحمه الله - دعوته على أمير العيينة، وفسر له معنى التوحيد، وطلب منه العون والمساندة قائلاً له: "إني لأرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهر الله تعالى، وتملك نجداً وأعرابها، فقد قدم الشيخ - رحمه الله - هذا العرض بكل صدق وإخلاص، وقد وعد عثمان بن معمر الشيخ، بالمساعدة والنصر،

(١) انظر: بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله بن صالح العثيمين ٨٤/١.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٨١.

واعتماداً على نصرته بدأ الشيخ، يصدع بدعوته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصدى الشيخ للقضاء على بعض مراكز البدع، ونجح في مهمته هذه، وأمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عثمان بن معمر، بإحياء الصلوات مع الجماعة، وعينت عقوبات للمتخلفين، وكان الأمراء يأخذون أنواعاً من الضرائب والرسوم، فرفعها الشيخ، ونفذ الزكاة، وكان هذان عاملين جديين، عملهما عثمان بن معمر وتسبب فيهما الشيخ، إلا أن الأعداء كانوا يطعنون في أعمال الشيخ^(١).

وفي العينة بدأ الشيخ يؤلف رسائل الدعوة المتسلسلة التي استمرت إلى وفاته، وصار له بعض الأنصار في الدرعية، فكان يرشدهم ويوجههم من العينة^(٢). قام الشيخ ببرنامج الإصلاح في العينة، مدفوعاً بقوة إيمانه، فشاعت أخباره، ومساندة عثمان بن معمر إلى مسمع العرب، خاصة أمراء نجد والأحساء، وقد اعتقد أعداء الدعوة، أن انتصار الدعوة يعني ضياع السلطة من أيديهم لذا حاولوا بكل وسيلة ممكنة القضاء عليها، وزعموا أنه يملأ قلوب الجهال بكلامه، ويقويهم بطريقته، فيخرجون على حكامهم، ويعلنون العصيان^(٣).

إن تاريخ الدعوة مع المعارضين يعيد نفسه، حيث عارض الملاء دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وكان من أسباب معارضتهم، ومن أهمها:

(١) انظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه، أ. مسعود الندوي، ترجمة وتعليق:

عبد العليم عبد العظيم البستوي، مراجعة وتقديم: د. محمد تقي الدين الهلالي، ٤٥-٤٩.

(٢) روضة الأفكار والأفهام لمرئاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام، حسين بن غنام ٢٠٠١،

حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقييل ٤٢.

(٣) تاريخ نجد، حسين بن غنام، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار الشروق ٧٩.

خوفهم على وجاهتهم ومكانتهم وسلطانهم، وهذا ما جعل الملاءمة من قریش يقفون في وجه الدعوة الإسلامية، ويعارضونها خوفاً على مكانتهم، وزعماء منهم أن الدعوة تجردهم من تلك المكانة، وقد تأمر خصوم الدعوة على الشيخ، فشكوا إلى سليمان آل محمد رئيس بني خالد في الأحساء، وكانوا قد خوفوه من خطر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فأرسل سليمان إلى عثمان كتاباً يهدده فيه، إن لم يقتل الشيخ، أو يخرج من بلده، إن لم يفعل ذلك، قطع خراجة عنده في الأحساء^(١).

فلم يستجب ابن معمر في بداية الأمر لطلب حاكم الأحساء، ولكن الظروف كانت كلها ضد الشيخ وابن معمر، وقد أدرك ابن معمر أنه لا يستطيع رفض أمر حاكم الأحساء، فأمر الشيخ بالرحيل من العيينة، وبعد أن رأى الشيخ موقف عثمان عرف أن لا مقام له في العيينة، عندها قرر الشيخ - رحمه الله - الذهاب إلى الدرعية، لوجود كثير من أتباعه بها، ولأن أميرها محمد ابن سعود - رحمه الله - مشهور بالقوة والتدين والصلاح، والشيخ في ذهابه إلى الدرعية يدرك أهمية الإيواء والنصرة بالنسبة لدعوته فدعوة الشيخ بحاجة إلى مأوى يؤويها لتنتقل إلى المناطق المجاورة وتنتشر عقيدتها الصحيحة وبحاجة أيضاً إلى القوة السياسية، لتدعمها وتساندها وتؤازرها، لذا رأى الشيخ أن ينتقل إلى الدرعية ليستفيد من قوة الإمام محمد بن سعود - رحمه الله عليهما -.

ثانياً: الإمام محمد بن سعود - رحمه الله -:

أجمعت المصادر التاريخية على أن الإمام محمد بن سعود، كان على خلق كريم، حيث كان معروفاً بحسن السيرة، وبالوفاء وحسن المعاملة، وكان

(١) المرجع السابق، ٤٠.

شجاعاً، ولم يخش لوم اللائمين، ولا كيد الأعداء المحاربين، فشمّر في نصرة الإسلام بالجهاد وبذل طاقته واجتهاده في نصر الدعوة وأهلها.

ويصف صاحب لمع الشهاب ما كان عليه الإمام من كرم فيقول: "ذكر الثقات من المخبرين عن شأن محمد بن سعود، أنه كان رجلاً كثير الخيرات والعبادة. وكان كريم الطبيعة، ميسر الرزق، له أملاك كثيرة من نخل وزروع، قيل من سخاوته إن الرجل يأتيه من البلدان، فيطلب منه شيئاً كثيراً لوفاء دين عليه، فإذا عرف أنه محق أعطاه إياه^(١).

ومن حسن خلقه أنه يحفظ الجميل ولا ينساه أو يتناساه، ويركز صاحب لمع الشهاب على صفة الوفاء، ويستشهد على ما يقول بوفاء الإمام وأولاده من بعده للعهد الذي قطعوه للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولم يخرجوا عليه أبداً، بل لقد استشهد ولداه: فيصل وسعود خلال جهاده من أجل نصرة الدعوة، فلم تلن له قناة، ولم يزد ذلك، إلا الإصرار على بذل المزيد من الجهد والمال والرجال في سبيل نصرة دين الله^(٢).

ولعل من أهم الأسباب التي جعلت الشيخ ينتقل إلى الدرعية، لتكون منطلقاً لدعوته بعد العينة، ما يلي:

أولاً: ازدياد قوة الدرعية بالمقارنة بقوة الإمارات الأخرى المحيطة بها.

ثانياً: كون الدرعية أقرب البلدان المناسبة للدعوة إلى العينة.

ثالثاً: استقرار الحكم في الدرعية.

رابعاً: حسن سيرة صاحب الدرعية الإمام محمد بن سعود.

(١) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، حسن الريكي، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ ٤٥.

(٢) المرجع السابق ٤٥.

خامساً: وجود أنصار لدعوة الشيخ من بين رجالات الدرعية، مثل: إخوة الأمير محمد بن سعود، وهم الأمير ثنيان، والأمير مشاري، والأمير فرحان، والأمير الصغير عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وآل سويلم وغيرهم.

سادساً: كان الشيخ كبير الثقة في الحصول على المساعدة والحماية من الأمير محمد بن سعود، لا سيما أن عدوهما واحد، ألا وهو حاكم الأحساء، الذي ضغط على عثمان بن معمر، أمير العينة لطرده هذا من ناحية الشيخ.

أما من ناحية الأمير محمد بن سعود، فكان طبيعياً أن يؤوي إليه صاحب الدعوة تحدياً للأمير الأحساء، الذي سبق أن هاجم الدرعية من قبل. سابعاً: إدراك الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما كان يتمتع به الأمير محمد بن سعود من صفات الرجل المحارب الفذ، والدعوة في ذلك الوقت كانت في حاجة شديدة إلى اليد القوية التي تساندها وتؤازرها.

لكل هذه الأسباب وغيرها وقع اختيار الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الأمير محمد بن سعود -رحمهما الله-، ليكون الحامي للدعوة والمدافع عنها، ولتكون الدرعية مركز الدعوة^(١).

لقاء الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود -رحمهما الله-:

أورد كل من ابن غنام، وابن بشر، وصاحب لمع الشهاب تفاصيل هذا اللقاء التاريخي بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، بطرق

(١) انظر: الإمام محمد بن سعود دولة الدعوة والدعاة، تقديم: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي ٤٦ -

مختلفة. فاتفقوا في بعض التفاصيل، واختلفوا في البعض الآخر، وإن كان مضمون اللقاء فيما أورده الثلاثة واحداً في مجمله، فيذكر ابن غنام -وهو أقرب الثلاثة إلى الشيخ، لأنه أحد تلاميذه ومن أخلصوا في نشر دعوته- أن الشيخ خرج سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة وألف من العينة إلى دار تلميذه الشيخ أحمد بن سويلم، فلما سمع بذلك الأمير محمد بن سعود قام من فوره مسرعاً إليه، ومعه أخواه ثنيان ومشاري، فأتاه في بيت أحمد بن سويلم فسلم عليه، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وأخبره أنه يمنعه بما يمنعه منه نساءه وأولاده، فأخبره الشيخ بما دعا إليه رسول الله ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم- من بعده، وبما أمروا به ونهوا عنه، وكيف أعزهم الله بالجهاد، وتطرق إلى ما عليه نجد وقتذاك من مخالفة لشرع الله وسنة رسوله ﷺ، فلما تحقق الأمير محمد بن سعود من معرفة التوحيد، وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية، قال له: يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، فأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد، ولكن أريد أن أشرط عليك اثنتين: نحن إذا قمنا في نصرتك، والجهاد في سبيل الله، وفتح الله لنا ولك البلدان، أخاف أن ترتحل عنا، وتستبدل بنا غيرنا، والثانية: أن لي على الدرعية قانوناً آخذه منهم في قوت الثمار، وأخاف أن تقول: لا تأخذ منهم شيئاً، فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك: الدم بالدم والهدم بالهدم، وأما الثانية: فلعل الله يفتح لك الفتوحات، فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها. وتتفق رواية صاحب لمع الشهاب مع رواية ابن غنام في بعض التفاصيل، فهي أقرب إليها من رواية ابن بشر^(١).

(١) لمزيد من التفاصيل راجع: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، د. عبدالله العثيمين ٦٠، تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله العثيمين ٨٤/١، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب حسن الريكي، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ ٤٦، روضة الأفكار، ابن غنام ٥٢.

وبالرغم من اختلاف واتفاق المؤرخين في قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية سرّاً أم علانية، وبدعوة من الأمير نفسه، إلا أن الاتفاق بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب ثابت تاريخياً، ومحل اتفاق في كل المصادر التاريخية التي تحدثت عن ذلك، لقد كان الاتفاق على نصر دين الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإقامة شرائع الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك تتوفر القوة والسلطان في مؤازرة دعوة الشيخ، ويعد هذا الاتفاق أعظم حدث تاريخي عرفته نجد، بل الجزيرة العربية كلها، منذ عصر الخلافة الراشدة، ألا وهو تحقيق الكيان السياسي والاجتماعي الملتزم بمذى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نتيجة إيواء هذا الأمير لهذا الداعية وتبنيه دعوته، وتفانيه معه في نشرها، والتزام ذريته من بعده بذلك وعلى إثر استقرار الشيخ في الدرعية، تم الاتفاق بينه وبين أميرها على نشر الدعوة إلى التوحيد ومحاربة البدع والخرافات، والقضاء على أسباب الفرقة والاختلاف.

وأكد الشيخ من جانبه على أن نشر دعوة التوحيد، هي رسالة المصلحين من سلف هذه الأمة، وإذ أوجز الشيخ للأمير بعض المظاهر السيئة للحياة الدينية والسياسية في نجد، فقد أكد له أنه يرجو أن تتسع إمارته، وتعدد اختصاصاتها فيتحول من أمير بلدة صغيرة إلى إمام يجتمع المسلمون عليه، وعلى أبنائه من بعده، وقد أكد الأمير محمد بن سعود أثناء اللقاء، أنه على اقتناع بصحة ما يدعو إليه الشيخ، وأنه دين الله ورسوله، وأنه سيكون معيناً له وناصراً لما يدعو إليه من تصحيح العقيدة، وتحقيق التوحيد لله وحده^(١).

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ابن بشر ٢٥/١، روضة الأفكار، ابن غنام ٣/٢.

ومما تجدر الإشارة إليه وجود بعض الخلط التاريخي الذي وقع فيه صاحب لمع الشهاب ونقله عنه بعض المؤرخين المحدثين، وفحوى هذا الخلط: أن الشيخ والأمير اتفقا كذلك على أن تكون قيادة الدولة العامة، وأمورها الإدارية بيد محمد بن سعود وأبنائه وأحفاده من بعده، وأن تكون أمور القضاء والفتيا والتعليم وتوجيه الدعوة والمجتمع الشرعية، بيد محمد بن عبد الوهاب وذريته، وعلماء الدعوة من بعده^(١).

وعلى الرغم من أن سير الأحداث بعد قيام الدولة السعودية الأولى، قد يوحي بوجود مثل هذا، إلا أن ذلك لم يحدث كاتفاق بين الشيخ والأمير، بل إن طبيعة الاختصاصات الوظيفية في الدولة، أخذت تنظيماً من بروز كل من آل سعود وآل الشيخ في مجال اختصاصه، الذي كان عليه قبل الدعوة وقيام الدولة.

ومن هنا كان الوضع طبيعياً، أن تبقى قيادة الدولة العامة لآل سعود، لتأصل الإمارة فيهم في الدرعية، قبل الاتفاق، ووقوفهم مع الشيخ، وحمايتهم له وتأييدهم لدعوته، شكل مرحلة مهمة في تاريخهم السياسي العريق، زادت من مكانتهم، وقوت مركزهم، خاصة أنهم أثبتوا عبر الأدوار التي مرت بها الدولة السعودية، أنهم مؤهلون كل التأهيل لتولي قيادة الدولة، والالتزام بما يحويه اتفاق الدرعية من معان وأهداف سياسية، فلم تفتقر حماسة الأئمة والملوك من آل سعود لهذه الدعوة، منذ عهد الإمام المؤسس محمد بن سعود إلى يومنا هذا^(٢).

(١) لمع الشهاب، في سيرة محمد بن عبد الوهاب، حسن الريكي، تحقيق: عبد الرحمن آل الشيخ ٢٦،

الدولة السعودية الأولى، عبد الرحيم عبد الرحمن ٦٠.

(٢) تاريخ البلاد العربية السعودية، منير العجلاني ٩٤.

وفي المقابل فقد كان من الطبيعي كذلك، أن تستمر قيادة الأمور القضائية والفتيا والتعليم في يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونسله، إذ من الثابت تاريخياً، تأصل الناحية العلمية والدينية في هذه الأسرة، منذ فترة متقدمة عن قيام الدعوة، بما اشتهر عن آباء الشيخ وأجداده من بروز الناحية العلمية فيهم، وقد دعم هذا المركز العلمي والديني فيهم بعد اتفاق الدرعية، مكانة الشيخ العلمية في قيادة الدعوة، وإسهامه بالمشورة والنصح لأئمة آل سعود في تصريف الدولة كما دعم ذلك بروز عدد من أبناء الشيخ وأحفاده في فترات تاريخية لاحقة في الناحية العلمية والدينية والنصح والمشورة لأئمة آل سعود، وعلى هذا فما حدث من توزيع الاختصاصات بين أبناء وأحفاد هذين الزعيمين كان نتيجة طبيعية لذلك البعد التاريخي في هاتين الأسرتين العريقتين وللأهمية العلمية والسياسية في من يتولى هذه الأمور من سلالة هذين البيتين ولم يكن بناء على اتفاق مسبق بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمهما الله-^(١).

إن التأييد والمؤازرة والنصرة التي حظيت بها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من قبل الأمير محمد بن سعود، أدى إلى نجاح الدعوة، وترسيخ العقيدة الصحيحة، والقضاء على البدع والخرافات، مما جعل المؤيدين للدعوة يفتدون من أماكن متفرقة، وانضمت بعض البلدان إلى الدرعية مثل: العيينة وحريملاء ومنفوحة، وعرة والعمارية، وكان هذا الانضمام طواعية، واتباعاً لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وولاءاً للدولة السعودية، الأمر الذي شجع

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، د. عبد الله العثيمين ٦٢، الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس

الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحمن بن علي العريني ٧٩-٨٤.

الدولة السعودية على توحيد نجد، وقد اعتبر كل من الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب نجداً مجالاً لنشر الدعوة الإصلاحية، ولتوحيد نجد عقدياً وسياسياً، فأثمرت الدعوة في نجد أكثر من غيرها، وكان أئمة الدولة وعلماء الدعوة يحرصون كل الحرص على رفض أي صفة إقليمية لتلك الدعوة الإصلاحية، لأنهم على قناعة تامة أن الدعوة التي يجاهدون من أجلها، ليست إلا تجديداً لدعوة الإسلام التي تدرجت من إنذار العشيرة الأقربين، حتى انساحت في أرجاء العالم. كانت دعوة الشيخ محصورة في نواحي نجد، ولكنها كانت دعوة عامة، فما كان نجد وحده يحتاج إلى إصلاح، بل العالم الإسلامي كله، ولكن بداية الإصلاح تكون من البيت، فلذلك من الطبيعي أن تكون العينة وحريملاء والدرعية والعارض المراكز الأولية لدعوة الشيخ، ولكن من حين أن ظهرت بوادر الحياة في هذه النواحي، وسع الشيخ نطاق دعوته وكتب رسائل تبليغية إلى علماء البلاد النائية، وأمرائها وقضاها، وحرصهم على قبول دعوته، ولكن قليل من لَبَّى هذه الدعوة في بدايتها، وأما الأكثرون فقد استهزؤوا وسخروا، فمنهم من رماه بالجهل، ومنهم من زعم أنه ساحر، واتهموه باقحامات، وافتروا عليه افتراءات كان الشيخ مترهاً عنها^(١).

إن تاريخ الدعوة في الماضي والحاضر، يشهد بتربص خصومها بها، هؤلاء الخصوم الذين لا يتورعون عن الاتهامات الباطلة، والنيل من الدعاة إلى الله فقد اتهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من قبل وكذلك اتهم الأتباع من بعده، وهناك شبه اتفاق بين خصوم الدعوة على التهم قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِمْ^٢

(١) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه، مسعود الندوي ٥٨.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ^(١). ولكن شاء الله أن تقوم دولة الدعوة، لتقيم شرع الله، وكان الأمير محمد بن سعود خير عون للشيخ محمد بن عبد الوهاب، في تحقيق أهداف الدعوة، كما كان نسله من بعده خير حماة لها ولإنجازاتها الخيرة، لأجل ذلك عضت دولة آل سعود الأولى على هذه الدعوة بالنواجذ فازدهرت، وكان من آثار ذلك، أن تبوأَت هذه الدولة مكانة طيبة في نفوس المسلمين المخلصين إلا أن أعداء الإسلام، وأعداء الدعوة لم يعجبهم نهضتها، فعملوا على القضاء عليها وعلى أصحابها حتى أبلى أهلها بلاءً حسناً، فجاهدوا في الله، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من بقي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، فقد قتل من آل سعود في الجهاد الدعوي، أكثر من ثلاثين رجلاً، خلال حكم الأمير محمد بن سعود، منهم اثنان من أبنائه، وقد استطاعت الدولة العثمانية أن تحرك أتباعها وتنقض على الدولة السعودية الأولى، لكنها لم تنجح في أن تنال من تلك العزيمة، حيث تمكن الإمام تركي بن عبد الله بن سعود من إعادة روح الجهاد لهذه الحركة الإصلاحية بتأسيسه الدولة السعودية الثانية، فقام الإمام تركي بمناصرة الدعوة، فعادت إليها قوتها ومكانتها، وظلت الدعوة قوية منصوره طوال حكم الدولة السعودية الثانية، وقد واجه آل سعود في هذه الأثناء ظروفًا صعبة، حتى قامت دولتهم الثالثة على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله^(٢).

مناصرة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - للدعوة الإصلاحية:

إن شخصية الملك عبدالعزيز - رحمه الله - من الشخصيات الفذة، التي شهد التاريخ بتميزها، لما لها من دور فاعل في صناعة التاريخ الحديث عامة، وتاريخ المملكة العربية السعودية خاصة، بل إن المؤرخين لا يبالغون حين يؤكدون

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٣.

(٢) انظر: الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله، د. محمد بن ناصر الشثري ١٠٨/١ - ١٠٩.

مراراً، بأن تاريخ المملكة العربية السعودية لا يمكن أن يكتب فيه سطر واحد دون التطرق إلى تاريخ مؤسسها الملك عبدالعزيز -رحمه الله-^(١)، ويحسن بنا أن نعرّف بالملك عبدالعزيز -رحمه الله- فقد ولد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود في قصر والده في الرياض، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ مولده، فمنهم من قال: إنه ولد عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، ومنهم من قال: إنه ولد في عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، ومنهم من قال غير ذلك، ويميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن التاريخ الأول، أي: ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م أقرب التواريخ إلى الدقة والواقع^(٢).

وقد كان الملك عبدالعزيز -رحمه الله- دائم التفكير والتطلع لاستعادة ملك آبائه وأجداده، وليعيد للبلاد وحدتها وأمنها واستقرارها، الذي نعمت به منذ أن قامت الدولة السعودية الأولى، التي ناصر فيها آل سعود، بقيادة الإمام محمد بن سعود دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحم الله الجميع- ونجح الملك عبدالعزيز -رحمه الله- في استرداد الرياض واستعادة الحكم في بطولة رائعة وثقة بالله وتأييده، وبذلك يكون نجح -رحمه الله- في وضع اللبنة المهمة والراسخة في تأسيس الدولة التي ينشدها^(٣)، واستغرقت مسيرة الملك عبدالعزيز لتوحيد البلاد، والدفاع عن وحدتها ثلث قرن من الزمن^(٤)، فبعد سقوط دولة آل سعود الثانية في سنة ١٨٩١م، انقسمت أراضيها إلى قسمين، كان أحدهما بيد

(١) الملك عبدالعزيز والعمل الخيري، دراسة تاريخية وثائقية، د. عمر بن صالح العمري ١٥.

(٢) شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي ٥٦/١-٥٨.

(٣) الملك عبدالعزيز والعمل الخيري، د. عمر بن صالح العمري ٤٤.

(٤) عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، كمال الكيلاني ٣٩.

العثمانيين، والآخر بيد ابن رشيد، ثم ظهر عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الذي ما إن بلغ الخامسة والعشرين من عمره، حتى حانت اللحظة التاريخية التي استطاع فيها ومن ورائه عصبة مؤمنة، تربت على عقيدة سليمة، وانطلقت إلى غايتها، ترجو نصر الله وعونه، فدخلت الرياض.

ويعد الملك عبدالعزيز -رحمه الله- من القادة البارزين القلائل في تاريخ العرب الحديث، فقد استطاع بفضل الله تعالى، ثم بشخصيته المتنوعة المواهب تكوين دولة عصرية حديثة، وقد عرف -رحمه الله- بالصلاح وكثرة العبادة، ودعا الناس إلى الاهتمام بالعقيدة الصحيحة والعمل بها^(١)، كما كان من أبرز شواهد صحة المعتقد عند الملك عبدالعزيز -رحمه الله-، مناصرته للعقيدة الصحيحة، التي قامت عليها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي تعاهد على الالتزام بها ونصرتها كل من الإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود فيما عرف باتفاق الدرعية عام ١١٥٨هـ^(٢).

وقد توارث الأئمة الأعلام من آل سعود تلك المحبة والإيمان والنصرة لتلك المبادئ، حيث كان الملك عبدالعزيز يعلن بين حين وآخر التزامه بها في مختلف الظروف، ولم يكن الأمر يتوقف عند هذا الحد، فنتيجة لإيمان الملك عبدالعزيز التام بهذه المبادئ العقدية السامية نراه قد ألزم نفسه وأتباعه بها وبأمر -رحمه الله- إلى وضعها موضع التطبيق، وقد صرح -رحمه الله- بأنه سلفي العقيدة، يدعو إلى الكتاب والسنة، ويحكمهما وحذر من مخالفتهما، بل وحارب البدع المنافية للكتاب والسنة، بكل طريقة ممكنة.

(١) انظر: المرجع السابق ٤٣-٥٠.

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام، تحقيق: ناصر الدين الأسد ٨٦.

ومن أقواله التي تبين سلفيته في العقيدة:

يقولون: إننا وهابية، والحقيقة أننا سلفيون محافظون على ديننا نتبع كتاب الله وسنة رسوله، وليس بيننا وبين المسلمين إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(١). وهذا يؤكد أنه كان على عقيدة السلف الصالح -رضي الله عنهم- وهذا ما سعى إليه ونصره، ودعا إليه، وقاتل من أجله، وألزم جميع من تحت يده به. ويتضح لنا كذلك كيف كان بيت آل سعود محباً للعلم الشرعي، وللعلماء العاملين، وكيف كانت مكاتبات الأئمة من آل سعود إلى الناس، والتي يلاحظ فيها دفاعهم عن العقيدة السلفية، ومحاورتهم للخصوم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، مع إفاضة بذكر الأدلة من الكتاب والسنة، وأقوال أئمة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وظل هذا البيت محباً للعلم الشرعي، معظماً لحملته^(٢). كما قال -رحمه الله تعالى- في بيان شدة اعتزازه بكلمة التوحيد، واستعداده للتضحية من أجلها: عندي أمران لا أتماون في شيء منهما، ولا أتوان في القضاء على من يحاول النيل منهما ولو بشعرة: الأول: كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" اللهم صل وسلم وبارك عليه، إني والله وبالله وتالله أقدم دمي، ودم أولادي، وكل آل سعود فداء لهذه الكلمة ولا أضن بها^(٣).

وقد حرص الملك عبدالعزيز -رحمه الله- على التحذير من البدع في الدين والمنكرات فكان ينصر العقيدة السلفية، ويحارب ما يناقضها، وكان يحرص

(١) عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ودفاعه عنها، د. محمد بن عبدالرحمن الخميس ١٨.

(٢) المرجع السابق ٢٢.

(٣) المرجع السابق ٣٠.

على محاربة الشرك الذي يناقض التوحيد، وكان حريصاً على تحكيم الشريعة، والدعوة إلى لزومها، فكان من ثمارها الأمن والأمان الذي تعيشه الديار السعودية في هذا الزمان، كما حرص -رحمه الله- على نشر العقيدة السلفية الصحيحة، والعلوم الشرعية والدينية النافعة، فأصدر التوجيهات لأئمة المساجد وغيرهم لتعليم الناس أمور الدين والعقيدة الصحيحة، واهتم بفتح المدارس والتعليم، وجعله مجانياً، كما قام باستجلاب عدد كبير من العلماء أصحاب العقيدة السلفية الصحيحة للإقامة والتدريس في مدارس المملكة، وقام بإرسال المعلمين والدعاة للقرى والهجر، لتعليم الناس أحكام الشريعة والتوحيد، وأرسل الدعاة إلى خارج البلاد، وأعانهم بالمال والكتب الإسلامية، وذلك لنشر العقيدة الصحيحة، ومحاربة البدع والخرافات كما أمر -رحمه الله- بطبع عدد كبير من كتب التراث المخطوطة، ونشرها بين الناس على نفقته، وكذلك نشر عدداً كبيراً من الكتب السلفية المطبوعة، واشترى كميات كبيرة منها، ووزعها على نفقته.

يتضح لنا من كل ما سبق كيف كان الملك عبدالعزيز آل سعود -رحمه الله تعالى- حريصاً على نصررة العقيدة السلفية الصحيحة ونشرها بين الناس، وكم كان حريصاً على نشر العلوم النافعة، ومحاربة الجهل داخل المملكة وخارجها وتبصير الناس بأمور الدين، ومحاربة البدع والخرافات^(١).

وفي سنة ١٣٤٥هـ أرسل الملك عبدالعزيز الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ إلى أهل الغطط لما غلوا في الدين، وشددوا فيه تشديداً ينافي الشرع،

(١) انظر: الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله، د. محمد ناصر الشثري ٦٦٥/٢-٦٦٩.

فمكث عندهم ستة أشهر، يبين لهم معاني الكتاب والسنة، وعبارات رسائل علماء دعوة التوحيد السلفية، ويحذرهم من الغلو.

ولما رأى الملك عبدالعزيز في الشيخ محمد بن إبراهيم الكفاءة والسداد، جعله مستشاراً شرعياً له في تولية القضاة، وإبداء الرأي في الأمور الشرعية وقد كان الشيخ - رحمه الله - يقوم بتمييز الأحكام التي تحتاج إلى نظر، ثم كان رئيس قضاة نجد في أعمالهم القضائية، ولما شكل مجلس القضاء الأعلى كان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رئيساً له، ومن خلال هذا العمل قام سماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم بالدعوة إلى الله من خلال الحكم بالشرعية، وكان - رحمه الله - على حظ وافر من الشجاعة وقوة الشكيمة لا يخاف في الله لومة لائم، وقد أحب سماحة الشيخ محمد ولاة هذه البلاد، فكان ينصح لهم، ويدعو لهم، ويث محبتهم في القلوب، ويرسل إليهم بالإرشادات التي يراها تحقق لهم المصالح الدينية^(١) وقد أسندت أعمال كبيرة إلى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مثل: الإشراف على عدد من الإدارات الدينية مثل: دار الإفتاء، رئاسة القضاء، ورئاسة الكليات والمعاهد العلمية ورئاسة الجامعة الإسلامية، والإشراف على تعليم البنات وذلك في عهود الملك عبدالعزيز وسعود وفيصل - رحمهم الله -^(٢).

وهكذا نرى أن آل سعود ناصرُوا الدعوة بما جعلهم أهلاً لتولي أمور المسلمين، حيث توافرت فيهم الأوصاف الشرعية الواجب توافرها في ولاة الأمر واشتهرت عدالتهم بين الجميع، مما جعل الناس يبايعونهم على السمع

(١) العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية، محمد بن عبد الله الرشيد ١٧.

(٢) انظر: الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله، د. محمد ناصر الشثري ٢/٦٦٥-٦٦٩.

والطاعة وعلى كتاب وسنة رسوله ﷺ دون أن يجدوا في نفوسهم حرجاً، ولقد قامت السياسة الشرعية التي انتهجها آل سعود على الأسس الدينية الصحيحة المستمدة من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله الكريم ﷺ^(١).

لقد كان الملك عبدالعزيز - رحمه الله - مناصراً للدعوة والدعاة، ولم تكن تلك النصره في الداخل هي حدود عمل الخير عند الملك عبدالعزيز في باب النصره، فقد عرف عن الملك عبدالعزيز نصره المسلمين، ودعمهم مادياً ومعنوياً، ومؤازرة القضايا الإسلامية، والدفاع عنها خارج المملكة العربية السعودية.

فالتاريخ يشهد بمختلف مصادره بالوقوفات الصادقة للملك عبدالعزيز إلى جانب فلسطين المسلمة والفلسطينيين المسلمين دينياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً^(٢).

لقد كان من أهداف الدعوة في الفترة المكية، الإعداد لبناء الدولة، التي تحمي الدين وتسوس الناس به فالدولة هي التي تحمي الإنسان، وهي التي تحمي الدعوة التي تبني الإنسان عقدياً وفكرياً وبدون الدولة يصبح كل إنجاز للدعوة على مستوى الإعداد البشري بالخصوص معرضاً للخطر، وهو ما يعود بالضرر على الدعوة نفسها.

لقد عمل الرسول ﷺ بكل قواه على استيعاب المجتمع المكي، وجعله نواة لدولة الإسلام، تتولى نشر الإسلام والذود عنه، فلما تعذر عليه ذلك، اتجه إلى

(١) المرجع السابق ١١١.

(٢) الملك عبدالعزيز والعمل الخيري، د. عمر بن صالح العُمري ٢٢٩.

الطائف باحثاً عن النصر والتأييد ثم بعد ذلك إلى خارج الدائرة القرشية، حيث تم له إيجاد أرضية جديدة لقيام الدولة التي تنصر الدعوة^(١).
فلقد قام آل سعود بمناصرة الدعوة السلفية ومساندتها بكل ما يملكون، فكانوا نعم المساندين والمناصرين لها، وما زالت جهودهم الطيبة متواصلة متنامية في دعم الدعوة السلفية في داخل المملكة العربية السعودية، وفي خارجها ويقومون بدعم قضايا المسلمين في شتى أنحاء العالم، فجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، وأجزل مثوبتهم.

(١) انظر: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة، الطيب البرغوث ٢٦٧-٢٦٨.

الخاتمة:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله بحاجة مستمرة إلى الإيواء والنصرة، حتى تتواصل مسيرتها، وتحقق غاياتها، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث مشتملاً على أهمية الإيواء والنصرة للدعوة، وحاجة الدعوة لذلك في كل زمان ومكان وقد اشتمل البحث على الإيواء والنصرة في العهد المكي، وانتفاع الدعوة بالمكانة الاجتماعية للنبي ﷺ ومثله بني هاشم ومواقف أبي طالب التي ساند فيها دعوة النبي ﷺ وهجرة المسلمين إلى الحبشة حيث آواهم النجاشي في جواره، كما امتنعت الدعوة بقوة بعض المسلمين، مثل: حمزة وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما -.

فقد أفادت الدعوة في عهدها المكي من الإيواء والنصرة، وإن حرص النبي ﷺ على التماس الإيواء والنصرة لدى القبائل الوافدة إلى مكة، أثمر ثماراً طيبة حيث التقى ﷺ وفد الأوس والخزرج في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وعاهد هذا الوفد الميمون رسول الله ﷺ على إيواء الدعوة ونصرتها، ثم كانت الهجرة، حيث استقرت الدعوة في المدينة وأوت إليها، وفي المدينة ظهرت آثار الإيواء والنصرة على الدعوة، حيث كانت الغزوات وفتح مكة، وارتفعت راية الإسلام عالية، ومكن الله لدينه ونصر أوليائه، فقد انتفعت الدعوة -بعد توفيق الله- بالإيواء والنصرة. وقد اشتمل هذا البحث على نموذج تطبيقي لأثر الإيواء والنصرة على الدعوة في الوقت الحاضر، تجلّى ذلك في مناصرة حكّام الدولة السعودية الأولى والثانية والثالثة لدعوة الشيخ محمد بن

عبد الوهاب - رحمه الله -، تلك الدعوة الإصلاحية المباركة التي أعادت الناس إلى تحكيم الشريعة في جميع شؤون حياتهم، وهذا مما يؤكد حاجة الدعوة الإسلامية في كل وقت وحين إلى بيئة مناسبة وإلى سلطة صالحة توفر البيئة والمناخ المناسب للدعوة أن تنمو، ولعل من أهم النتائج التي نخلص بها في خاتمة هذا البحث مايلي:

١ - حاجة الدعوة الإسلامية في صدر الإسلام إلى الإيواء والنصرة، ولذلك حرص الرسول ﷺ على طلب الإيواء والنصرة في مواقع متعددة إلى أن هيا الله له الهجرة، فكانت الانطلاقة الوثابة للدعوة، وللفتوحات الإسلامية، وبناء الدولة المسلمة.

٢ - إن حاضِر الدعوة الإسلامية شبيه بماضيها، ولعلّ الدعوة الإصلاحية التي خرجت في نجد، وقد تبناها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وجدت مناخاً مناسباً لمنصرة حكام الدعوة السعودية لها فأتت أكلها، ورجع الناس إلى دين الله القويم، وانتشرت الصحوّة والله، حتى وصلت مواقع متعددة ومساحات هائلة من المعمورة.

٣ - أهمية أن تعنى الدعوة الإسلامية - بعد توفر المناخ المناسب لها، والسلطة السياسية الصالحة الراشدة التي ترعاها - باستصلاح أحوال الناس بالحسنى، وجذبهم إلى الخير بالحكمة، وبالأسلوب الأمثل، والوسيلة الفاعلة، وأن تشبع احتياجات الناس وتهذب من ميولهم، ورغباتهم لتوصيلهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

٤ - إن انتشار الدعوة الإسلامية في وقتنا الحاضر في قارات العالم، والتي تحتاج معها إلى أن تقدّم بلغات متعددة، وبوسائل جذابة، تتطلب إلى توسيع دائرة إيوائها ونصرتها لتسير حيثما وجد الإنسان.

وفي الختام نسأل الله أن يصلح أحوال الأمة إلى ما فيه الخير والسداد، وأن
يبصرها إلى ما فيه رشادها وعزّها وصلى الله وسلم وبارك على عبدالله ورسوله
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

- ١- الإسلام في حياة المسلم، د. محمد البهي، ط ٥ مكتبة وهبة، القاهرة: ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- ٢- الإمام محمد بن سعود دولة الدعوة والدعاة، د. عبدالله بن عبدالحسن التركي، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط ١: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٣- الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحمن بن علي العريبي، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ط ١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٤- أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، عبدالله بن محمد آل موسى، ط ١ دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٠٥/١٩٨٥م.
- ٥- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، ط ٢ دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
- ٦- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمد حميد الله، ط دار المعارف، القاهرة: ١٩٥٩م.
- ٧- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالحسن التركي، ط ١ دار هجر، القاهرة: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٨- البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، ط مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- ٩- بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله بن صالح العثيمين، ط ١ مطابع دار الهلال للأوفست، الرياض: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٠- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ط ١ المكتب الإسلامي، بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ١١- تاريخ البلاد العربية السعودية، منير العجلاني، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

- ١٢- تاريخ الدعوة في عصر النبوة، د. محمود رزق محمود، ط ١ دار الهداية للطباعة والنشر، مصر: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٣- تاريخ الدول العربية، تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، د. السيد عبدالعزيز سالم، ط ١ مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- ١٤- تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، القاهرة: ١٩٦١م.
- ١٥- التاريخ الشامل للمدينة المنورة، د. عبدالباسط بدر، ط ١: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ١٦- تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، د. عمر فروخ، ط ٧ دار العلم للملايين، بيروت: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ١٧- تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله بن صالح العثيمين، ط ٧: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ١٨- تاريخ نجد، حسين بن غنام، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، ط ٣ دار الشروق، بيروت: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ١٩- التخطيط للدعوة الإسلامية وأهميته، عبد رب النبي علي أبو السعود، ط ١ مكتبة وهبة، القاهرة: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٢٠- تصورات في الدعوة والثقافة الإسلامية، د. رؤوف شليبي، ط ٢ دار القلم، الكويت: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٢١- تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير ط ١ دار الفيحاء، دمشق: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٢٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط ١ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٣- ثلاثة الأصول وأدلتها، الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، ط مؤسسة النور، الرياض.

٢٤- حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقييل، ط ١ مطابع الفرزدق التجارية، الرياض: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٢٥- خاتم النبیین - محمد ﷺ -، سميح عاطف الزين، ط ٢ دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢٦- دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين، د. مصطفى أبو ضيف حمد، ط مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٢٧- الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش، ط دار الكتاب المصري: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٨- الدعوة الإسلامية "دعوة عالمية"، محمد الراوي، ط ٣ مكتبة الرشد، الرياض: ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٢٩- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي "مناهجها وغاياتها"، د. رؤوف شليبي، ط ٣ دار القلم، الكويت: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣٠- الدعوة إلى الله "الرسالة - الوسيلة - الهدف"، د. توفيق الواعي، ط ٢ دار اليقين، المنصورة: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣١- الدعوة إلى الله في ميادينها الثلاثة الكبرى، محمد بن حامد آل عثمان الغامدي، ط دار الطرفين، الطائف: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣٢- الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - د. محمد بن ناصر الشثري، ط ١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣٣- الدعوة والإنسان، د. عبدالله الشاذلي، ط المكتبة القومية الحديثة، طنطا.

٣٤- الدولة السعودية الأولى، عبد الرحيم بن عبد الرحمن، ط مطبعة الجبلاوي، القاهرة: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- ٣٥- رحمة الله للعالمين، القاضي محمد سليمان المنصور فوزي، تعريب: د. مقتدي حسن ياسين الأزهرى، ط ١ الدار السلفية، بومباي: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ٣٦- الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، ط ١ دار الكتاب والسنة، باكستان: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٣٧- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبدالرحمن بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، ط دار الفكر، بيروت: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٣٨- روضة الأفكار، والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام، حسين بن غنام، القاهرة: ١٩٤٩م.
- ٣٩- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي، ط ٤، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٤٠- زاد المعاد من هدي خير العباد، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرنبوط، ط ١ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٤١- سلسلة الأحاديث الضعيفة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط مكتبة المعارف، الرياض: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ٤٢- السنن الكبرى، أبوبكر أحمد بن حسين بن علي البيهقي، ط ١ دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند: ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م.
- ٤٣- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، ط دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ٤٤- السير والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، تحقيق: د. سهيل زكار، ط ١ دار الفكر، دمشق: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ٤٥- السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي برهان الدين الحلبي، ط دار المعرفة، بيروت: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- ٤٦- السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى عبدالواحد، ط ٢ مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٨٩هـ.
- ٤٧- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبه، ط ٤ دار القلم، دمشق: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٤٨- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه، ط ٢ دار الوفاق، بيروت: ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- ٤٩- السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ط ٩ دار الشروق، جدة: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٥٠- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله، ط ١ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٥١- سيكولوجية الرأي والدعوة، د. رؤوف شلي، ط ٢ دار القلم، الكويت: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٥٢- شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، ط ٥ دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٩٢م.
- ٥٣- الشيخ محمد بن عبد الوهاب، د. عبدالله بن صالح العثيمين، ط مطبعة نهضة مصر، القاهرة.
- ٥٤- الصحاح، الجوهري، ط ١ دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٥٥- صحيح الإمام البخاري، أبو عبدالله إسماعيل البخاري، ط دار الفكر، بيروت: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٥٦- صحيح الإمام مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر وتوزيع الرئاسة العامة للإفتاء، الرياض: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- ٥٧- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، ط ٣ المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٥٨- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٥٩- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٦٠- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٦١- الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر، بيروت: ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ٦٢- عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، كمال الكيلاني، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ط ١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٦٣- العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية، محمد بن عبدالله الرشيد ط ١، مكتبة الشافعي، الرياض: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٦٤- علم نفس الدعوة، د. محمد زين الهادي، ط ١ الدار المصرية اللبنانية، القاهرة: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ٦٥- عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ودفاعه عنها، د. محمد بن عبدالله الحميس، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة السعودية، ط ١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٦٦- عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر، ط ٢ وزارة المعارف السعودية، الرياض: ١٩٧١م.
- ٦٧- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس، ط دار الآفاق الجديدة، القاهرة: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- ٦٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز،
ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي ط دار المعرفة، بيروت.
- ٦٩- فتح القدير، الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، ط ١ دار الوفاء،
المنصورة: ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ٧٠- فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، د. أحمد البراء الأميري، ط ١ دار القلم،
دمشق: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ٧١- فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر، الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني، ط ١ دار القلم، دمشق:
١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٧٢- فقه السيرة، محمد الغزالي، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، ط ٧ دار القلم،
دمشق: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٧٣- القاموس المحيط، فيروز آبادي، ط ١ دار إحياء التراث العربي، بيروت:
١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ٧٤- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ط دار صادر، بيروت: ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- ٧٥- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، ط ٣ دار صادر، بيروت:
١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٧٦- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، حسن بن جمال بن أحمد
الريكي، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، ط المطابع الأهلية للأوفست، الرياض،
نشر دار الملك عبدالعزيز.
- ٧٧- المجتمع المدني في عهد النبوة، الجهاد ضد المشركين، د. أكرم ضياء
العمري، ط ١: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ٧٨- محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه، أ. مسعود الندوي،
ترجمة وتعليق: عبدالعليم عبدالعظيم البستوي، مراجعة وتقديم: د. محمد تقي

- الدين الهلالي، ط ١ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض ط ١: ١٤٢٠هـ.
- ٧٩- محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان بن عبدالله السويكت، ط ١ مكتبة التوبة، الرياض: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٨٠- مختار الصحاح، محمد بن أبي الرازي، ط ١ دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٦٧م.
- ٨١- المستدرك على الصحيحين، الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، ط ١ دار المعرفة، بيروت: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٨٢- مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن محمد صالح المرشد، ط مكتبة لينة، دمنهور، مصر: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٨٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، إشراف: د. عبدالله بن عبدالحسن التركي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وزملائه، ط ١ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ٨٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح: أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف، مصر: ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
- ٨٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل، فهرس الرواة، محمد ناصر الدين الألباني، ط مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- ٨٦- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقرئ، ط دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ٨٧- معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، د. عبد الوهاب بن لطف السديلمي، ط ١ دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٨٨- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط دار الجليل، بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- ٨٩- مغازي الرسول ﷺ عروة بن الزبير بن العوام، برواية أبي الأسود عنه، جمع وتحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط ١ مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٩٠- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم، الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاي، ط دار المعرفة، بيروت.
- ٩١- المقدمة، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، ط ٥ دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٧٨م.
- ٩٢- الملك عبدالعزيز والعمل الخيري، "دراسة تاريخية وثائقية"، د. عمر بن صالح العمري، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ط ١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٩٣- منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، الطيب برغوث، ط ١ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، أمريكا: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٩٤- نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ، "دراسة في وثائق العهد النبوي"، د. عون الشريف قاسم، ط ٢ دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٩٥- النهج الحمدي، عبدالعزيز المسند، ط النادي الأدبي الرياض: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ٩٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ط ١ دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢١هـ.
- ٩٧- هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا مُحب، أبو بكر الجزائري، ط ٢ مكتبة لينة، دمنهور، مصر: ١٤١١هـ/١٩٩١م.